أنا.. وثلة من مُرتزقة الأرض !

الكتاب: أنا وثلة من مرتزقة الأرض

المؤلف: **عبدالله زايد**

تصميم الغلاف وإخراج الكتاب: Designer One ديزاينر ون

الرقم الدولي للكتاب: ISBN: 978-9948-00-000-0

الطبعة الأولى:2014



مداد للنشر والتوزيع
Medad Publishing & Distribution

دولة الإمارات العربية المتحدة – دبي
P. O. Box: 21521
www.medadpublishing.com
e-mail: info@medadpublishing.com
Twitter: @medadpublishing
Instagram: @medadpublishing
Tel: 0097142849211

أنا.. وثُلة من مُرتزقة الأرض !

عبدالله زايد

نسعى إلى إثارة الشكوك حول الذين لانطيقهم !

(فريدريك نيتشه) من كتابه.. إنسان مفرط في إنسانيته.. كتاب العقول الحرة

بمثابة البداية!!

إليك خطرات قلب.. وأنفاس وجدان.. أفكار عقل، وبوح كيان.. إليك لهيب الراحة، وكلمات الروح.. سطور أرق، وحديث نفس.. إليك عين الآخرين، ودمع حزنهم.. إليك صرخات من لا يجيدون الصراخ، ومعاناتهم الصامتة.. ونداءات من لا يعرفون النطق، ويسكنهم ألم.. إليك أحزان الضاحكين، وهمّ المبتسمين!

إليك مجتمعات، وعالم من المتناقضات؛ حيّز الحب فيه ضئيل.. إليك لأنك إنسان.. تحمل قلباً ينبض.. إليك لأنك تحب الحياة.. وتحبها لغيرك.. إليك لأنك تريد الخير لنفسك.. لكنك تتمناه أيضاً لغيرك.. إليك لأنك تكدح وتعمل، من أجل إسعاد نفسك وأحبتك.. لكنك تمجد الآخرين الذين يتعبون مثلك.

إليك لأنك تسعى دون أنانية.. دون غرور.. إليك لأنك إنسان، قبل هذا وبعده إنسان يحب.. إليك لأنك الوحيد من مخلوقات الله.. يعرف الحب.. معناه.. دفئه.. ذوقه.. حنانه.. راحته.. ومشيئته.. إليك في كبريائك وأنفتك.. بساطتك وتواضعك.. إليك في قسوتك وتجبرك.. طيبتك وهدوئك.. إليك إنساناً يفهم.. وكائناً مغرم.. وروحاً تتألم.. ونفساً تحزن.. إليك أقول كانت كلمات عابرة..

حطتها أنامل من الزمن الماضي.. وبعضاً منها من الزمن الحاضر.. نثرت إليك عبر النفس الحزينة.. وسكبت جداول الأسى المريرة.. ونشرت رياحين الألم الفاضح.. لتضحك معي على إنسان العصور المديدة.. وتعجب معي على إنسان الأزمان السحيقة.. إليك في قمة عطائك وأنت تنزف وقتك وسط كلماتي المتعبة.. ومعابر حروفي المتفرقة.. وأنهار جملي الآسنة.. ألا تعتقد أنني أشعر نحوك بامتنان أيها الإنسان؟! يا تلك الحكاية القديمة والقصة الحديثة.. إنه امتنان تعجز نحوه الشروح.. وتقف أمامه حائرة اللغات.. وبه يكتمل ألم الوجود.. إنه العجز الملاصق لنا دوماً.. والمتعب لنا دوماً.. عجز يكتمل.. وعجز مختصر.. وفي كل الأحوال.. هذا أنت لا تسمع عبير لهاثي.. يردد شكراً.. شكراً.. شكراً.. لتوقفك ولو للحظات بسيطة مع كلماتي! دمت بخير أيها الإنسان أنت.

الصمت!

يعتبر الكثير أن الصمت ضعف.. خاصة في تلك اللحظات المليئة بالنقاش.. المشحونة بالغضب.. المحتدة بالانفعال.. وقلة يعتبره فناً لا يقوى على ممارسته إلا أصحاب القلوب الكبيرة.. والعقول الواثقة.. لم نتعود عند طرح موضوع للنقاش في مجلس صاحب أن نلزم الصمت عندما يخرج الحوار عن معناه الحقيقي.. فلم نتعلم فن الصمت.. وفن الحديث.. ومتى يكون الصمت لغة بليغة؟ ومتى يكون الحديث هزيمة واضحة؟!

ومضى الإنسان!

تبكي الأنجم حزناً وكآبة.. يبكي الخائفون.. ومعها ينتشر المرض.. والوباء.. وكأنه (سيمفونية) مسخ من أوجاع الإنسان.. هذه الدروب طويلة.. مملة.. متعبة.. ومرهقة.. ولا مفر من الشوارع.. لا مفر من التعثر وسط الخطوات.. المهزوزة، المضطربة.. والمتهالكة. تبكي عوالم الزمن السحيق، ومعها يسود صمت الأماكن.. معها ينقطع صوت الإنسان الرخيم.. معها يسدل الستار الأخير، لقلب رحيم.. ومعها مضى الإنسان في هدوء عجيب!!

التعبير..

يقال إن التعبير بالمشافهة أبلغ وأكثر دفئاً وصدقاً.. وأن الكلمة تبقى عاجزة عن بلوغ حد الكمال الوصفي، لأنها لا تتمكن أبداً من نقل روح الصوت.. وما يحمله من مشاعر.. وأن الكلمة إنما هي عبارة عن شكل يُقرأ ويفهم بحدود معينة.. بينما الصوت يحمل دلالات وروح وحياة ماثلة.. تطرب لها الأذن وتفسرها.. يقول الروائي والشاعر النيجيري "غابرييل أوكارا" في بداية روايته "الصوت" في فكرة قريبة من هذه:

"تصعب محاولة الكاتب التعبير عن أفكاره، حتى إذا حاوله في لغته نفسها، لأن ما يقال أو يكتب عادة؛ ليس بالضبط ما جال في الفكر.. فبين ولادة الفكرة وتحولها إلى كلمات يضيع شيء ما".

الإبداع

قيل إن الإبداع حالة تعصف بالعقل الإنساني.. فمن تعيث به هذه الحالة مراراً، يكون مبدعاً مراراً.

وهناك من تتلبسه هذه الحالة على استحياء شديد.. وفي كل الأمور، فإن الإبداع وظيفة عفوية.. والتميز صورة جميلة في أعين البعض.. والبعض يراه صورة متجردة.. أو خالية من الانفعالات.. في كل الأوقات، فإننا نقف عاجزين تماماً عن تقييم النص ومنحه أحكام مطلقة.. أو هكذا أظن!!

النجاح..

إذا كنت تعيش وسط مجتمع تزدهر فيه الأنا.. وتتضخم فيه المفاسد وعدم النظام.. وقد لاقيت نجاحاً وتميزاً، فبلغت ذروته.. ووصلت لقمته.. فتذكر أن هناك ثلاثة احتمالات لنبوغك، الأول: أن تكون إنسان محظوظاً، الثاني: أن تكون المحسوبيات والواسطات قد قادتك إلى مصاف العظمة والتفوق! أما الثالث: فتكون فعلاً متميزاً مستحقاً له.. كدحت وعملت له منذ زمن.

في كل الحالات الثلاث لا تفسد فرحتك أو احتفالك.. يكفي أن تثير هذه الاحتمالات، وتسأل من أي واحد أنت منها داخل وجدانك.. إذا نجحت في ذلك، فاعلم أن ضميرك لازال حياً.. فحاول أن تساعده على البقاء بجانبك دوماً!!

النص..

يقول البعض: إنه عندما يشرع في الكتابة.. فليس لأن هناك قراراً قد صدر بهذه الممارسة.. بقدر ما أنها حاجة داخلية بدون ماهية محددة.. البعض أيضاً يحلو له القول: عندما أكتب، فإنني أبدأ دون فكرة محددة.. أو معرفة مسبقة للإطار الذي سأشكله.. بمعنى أنه لا يعلم هل سيكتب مقالاً.. أو خاطرة.. أم أنه سيكتب سرداً ذاتياً غارقاً في وحل المعاناة.

كثيرون هم الذين يفاجئون بنص خرج بصورة مغايرة تماماً لما بدأ يتنبأ به.. هذه الحالة هي الاستسلام لهذيان العقل والركض خلف الفكرة التي تثور في الذهن للحظات، ثم تخبو مرة أخرى.

الكاتب المبدع: هو ذلك الذي يقتنص الجمال عند ثورته السريعة ويسجلها دون وجل.. أو تردد.. أو تأجيل.. لأنها أيضاً سرعان ما تخبوا وتنطفئ. حقيقة النص: هي الغوص الذاتي البسيط مع الروح.. هي الغوص الإرادي داخل العقل.. والسماح بعفويته.. بهذيانه وهرطقاته بكل بساطة.. وبدون خوف!!

نصيحة قاسية !

صغير..

وشأنك بسيط.

هامشي..

وحضورك متواضع.

هذا واقع لابد أن يدركه كيانك المضطرب..

وهي حقيقية لابد أن يفهمها وجدانك الحزين.

مديح !

ما هذا الأسى المعطر..
بآهات الصمت المالح..
بالحزن النازف..
بالهم الواضح..
بالألم الفاضح..
ما هذا الحزن الذي يعدي..
يا صاحبة الحب الأزلي.

يكره حزنك !

إن وقفت باكياً مراراً على الأطلال..
فليست نفسك التي ملت..
عاداتك الحزينة هي التي تبكي..
إنما هي تلك التلة.. التي تعرف صوت خطواتك المهزومة !

متهم بالحب !

كيف وضعوا الأغلال في يديك؟!
وأصبحت أساور تزين معصميك!!
تهمتك حبيبي أن قلبك ينبض!
أنك تعشق!!

فقدان عاشق !

عدت ووجدت آثارك..
وخفقة قلب وجنونك!
وشعرت لأول مرة ببرودك..
ثم شاهدت آخر مرة رحيلك..
اليوم تقولين: إنك فقدتِ الكلمات المناسبة..
سيدتي: ليست الكلمات وحسب!!

أحبك.. ولكن !

أنا أعرف أنك جميلة..
وأن عينيك بحر من الدفء العجيب..
أنا أعلم أنك بعيدة..
وأن الذهاب إليك سفر طويل.. طويل!

يسأل نفسه!

أنا من أنا؟!
الصاغر الباهت..
أو الضائع المنبوذ..
أم الفقير المشرد..
أأنا البائس المجنون؟!
أو الشريد المطارد..
الجائع المسكين..
والمحب الولهان..
أم العاشق المتيم؟!
أأنا الإنسان.. أم هيكل إنسان؟!
أم آثار إنسان؟!

كم كنا؟!

ألم نسير يوماً وأيدينا مسدلة متشابكة؟!
ولم ألهبك بنظراتي..
ولم أجرحك بأنفاسي..
كم كنا نأتي تلك الأماكن..
وتشتعل فيها عيوننا صمتاً وحديثاً..
وتخفق فيها قلوبنا حباً وحنيناً..
ونملأ الأرجاء صخباً وضجيجاً..
يشيرون.. يقولون: محبين.. في الزمن القاسي!

فهم خاطئ

أحياناً تتواصل الكلمات.. وتترابط القلوب.. كل منّا مجهول.. ولديه سر مكنون.. والآخر يدفعه الفضول.. والبحث عن هذا المجهول.
أحياناً نكون "كالمغناطيس" ننجذب لبعض.. لكن لبعض الوقت.. عندما تتضح معالمنا أمام بعض.. نزهد في بعض.. يعود معدل الشوق في الانخفاض.. في الانحدار.. حتى ننسى بعض.
في غمرة التواصل والتجاذب والتساؤل.. نشعر بلهفة واهتمام.. نفسرها أحياناً خطأ.. نحسبها حب! نعرف أن الحب لا يولد هكذا.. لا يأتي هكذا.. لكننا نقرّ بأننا أحببنا.. في حقيقة الأمر؛ نحن قسونا على قلوبنا وحسب.. وحسب!!

أيام..

مضى يوم..
ثم جاء الآخر..
وسار الثالث بتثاقل..
وأرهقني يوم منتصف الأسبوع..
ثم شربت علقم الانتظار في اليوم الخامس..
وبكيت.. بكيت.. اليوم السادس..
وهأنذا أهذي في السابع الموحش!

شيء ما

شيء ما يحدث..
وبهدوء عادي يتسرب..

شيء ما يقع..
وبعفوية بسيطة يتسلل.

شيء ما.. لا أعرف لونه..
أجهل مكانه زمانه.. وعنوانه.

شيء ما.. يعتلج في صدري..
يقتلني غريباً عجيباً.. ورهيباً.

شيء ما.. لا أعرف ذوقه..
يعذبني يكسوني يغطيني.. ويبعثرني.

وشيء ما.. يأتي.. وفي أوان الشمس يحضر..

وعلى رشفات المطر ينمو.

شيء ما.. دون معالم.. دون هياكل..
بلا أشكال.. أو أجساد.

شيء ما.. روحياً.. علوياً.. فضائياً..
كهواء.. كأنفاس.. كسراب..
كسراب.. بعيد.. غائم..
سراب خادع.. يفرح الظمآن..
ثم يقتله!!

لا تشعر بالحزن كثيراً !

مضى العمر يا صديقي، وأنا واقف في نفس الأماكن.. أخشى المسير.. وأخاف الطريق.. وأموت عند التفكير في العبور.
مضى العمر يا صديقي، وفعلت بي الأيام فعلها المرير.. وأصبحت ذكريات للكثير من المارة.. وحديثاً قصيراً لهؤلاء المهرولين المتحمسين.
مضى العمر يا صديقي، وسطوة الزمن قاسية.. وكآبة الأوقات ماثلة.. والطريق يا صديقي بدون منتهى.. صحراء حالكة.. بدون نهايات محددة.
مضى العمر يا صديقي، فأين أنت؟! هل بلغت منتهى الطريق؟! أم وصلت للمكان الأخير؟! أي سماء تظلك؟! أي أرض تقلك؟! هل لازال قلبك جميلاً دافئاً؟! أم كما يقولون: إن الأيام تبدل النفوس؛ كما تبدل الأشكال!!
مضى العمر يا صديقي.. واسأل عنك.. ذاك السؤال البسيط العفوي السهل.. المحمل بالشوق.. بالحب.. بالحنان.
مضى العمر يا صديقي.. فليت الأيام تشفق بحالي.. وتتوقف قليلاً عند بابي.. بل ليتها تتريث!!! لكنها لم تفعل.. ولن تفعل.. والعمر يمضي.. وآمالي تكبر.. كشيخوختي الهرمة.. وكسنواتي المتهالكة..

وحصادي المرير.. وهذا الإرث العظيم.. الذي أحمله بين يدي.. لمن أعطي؟ لمن أهب؟ ومن يريد سر الأوجاع.. وأيام من الطفولة السوداء.. ومن يريد تركة الأحزان؟!

مضى العمر يا صديقي.. تماماً كما ذهبت بعيداً.. ولا تعلم كم أشتاق لك.. تماماً، كما أحن لأيام الحب والبياض.

نعم.. نعم؛ مضى العمر يا صديقي.. فعند عودتك.. توقف على نصب قبري إن وجدته.. وانظر كم قد مضى العمر.. وكم قد سرق الزمن منّا؟ لكن يا صديقي لا تشعر بالحزن كثيراً.. فأنا مجرد عابر نسته الأيام في مكان قصي.. وحيد.. تماماً كما نسيه الأصدقاء.. بعفوية.. وهدوء!

لا مكان..

تختزل نفسك هذا الحزن..
يعذبك هذا الأرق..

حتى الصمت يمارس العنف..
حتى الأماكن جامدة..
والقلوب خالية..
حتى السكون سراب..
والوجود فضاء..

حتى الألوان مبعثرة..
والأشكال ممزوجة..
حتى عيونك تبصر بملل..
ولسانك خلد للهدوء..

حتى المفردات تضيع في سراديب ذهنك المرهق..
حتى القلم تنقطع أنفاسه.. ثم يموت..

حتى الورقة..
حتى الجدران..
حتى على حبات الرمل.. والأرض..
لا مكان فيها لحرف!

انتظار المساء..

في هذا الصباح.. تفعلها عقارب الساعة فتسير ببطء قاتل.. منذ الأمس لم أنم.. وأشعر أنني منهك.. متعب.. أريد النوم.. لكنني لا أستطيع إنكار هذا النهار المتهالك.. لا أستطيع تجاهل هذه الشمس الصفراء القاسية.

في انتظار المساء.. وقت طويل.. كأني انتظر شيئاً خرافياً إعجازياً.. وكونياً.. كأني أشعر بتمتمة الضاحكين.. ما أسهل طموحاتي؟ وما أبسط مطالبي؟

عندما أصل لمرحلة الإعياء.. الإنهاك.. أبتسم بخمول.. بعيون متعبة.. أسأل نفسي: لِمَ يتم تعذيب هذا الكيان البسيط المجهول؟! ثم من يعذب من؟ روحي؟!! قلبي؟!! عقلي؟!! بل من هو المسؤول عن قرار عدم النوم في المساء الماضي؟ حيث أكرهها، ولا أعتبر بحالة الفوضى التي أعيشها دوماً؛ مثل الآن.

أنا أهرب من النوم.. بعيداً.. بعيداً.. بكد.. بجهد.. بهم.. لكنني عندما أصل لمرحلة الإرهاق.. الإعياء.. أجده أمامي ضاحكاً.. فأرتمي في حضنه بقوة.. بعنف.. حتى أعيش المثالية في أحلامي.. فأجدها جميعها بساتين خضراء.. كلها بحار زرقاء.. في انتظار

المساء الغائم.. حيث سأنام.. وأجد واقعاً أجمل.. وأوجهاً بريئة.. وأناساً عجيبين.. وواحات بلورية.. ورياحين بيضاء.. والمساء لا يأتي.. وعقارب الساعة تسير بهدوء.. بتأنٍ غريب.. لعين.. ووقت كئيب.. كعمري.. كزمني.. كيومي.. كطموحي.. وكبكائي الطفولي المرير.. في شوارع الزمن العتيق.. كالماضي والحاضر.. في تشابه ونسق غريب.

أنت الوحيد أيها الحلم الجميل.. لكنك لا تأتي إلا مع المساء.

والمساء لا يأتي.. أريد النوم.. بعفوية.. بعمق.. بهدوء.. نوماً طويلاً.. نوماً سحيقاً.. ونوماً دافئاً حنوناً.

"بشاير" هكذا أحبك العجوز..

صغيرتي؛ إنني لا أحتمل أن تكبري وتغيّري قلبك.. لطالما غيّر صغاري قلوبهم فور نموهم.. كوني البرعم الصادق.. كوني صغيرة دوماً..

نقية.. صادقة.. حبيبة.. مخلصة.. وحنونة.

ولا تغيّري قلبك.. لا تكبري.. إني أخاف من المخلوقات الكبيرة.. كوني بسيطة.. تفرحك الحلوى.. والبسكوت.. وتسعدك ضحكاتي.. وحكاياتي المملة.. كوني متواضعة.. ترضيك هداياي من الألعاب العتيقة.. وتبسطك قصصي عن المثاليات والحياة العظيمة.. كوني طفلة دوماً.. طاهرة دوماً.. نقية دوماً.. ولا تغيري قلبك أبداً.. ولا تستبدلي بياضك أبداً.. إني مسن لم أعد أحتمل التغييرات.. وأهوال الزمن وتقلب الأيام.. كوني "بشاير" الخير الأخير.. في فؤادي الحزين.. واسكبي أفراح اليوم الجميل.. واظهري شموس الأمل الجديد.. لكن لا تغيّري قلبك أبداً.. ولا تستبدلي بياضك أبداً.. كوني "بشاير" الفؤاد وعطره.. السماء وزهره.. كوني برعم النقاء.. والإخلاص المتجرد.. كوني "بشاير" الوقت الجميل المتبقي لي.. وريحانة حياتي النازفة.. وهروبي لقلبك البسيط.. كوني "بشاير" محلي القديم الذي أحن إليه.. وألهث نحوه

وأجد الدفء الحميم بين أضلاعك الرطيبة.. كوني "بشاير" دفئي الصادق الوحيد.. وصديقتي الوفية.. واذهبي معي للبائع الآسيوي الفقير.. وافرحي بتبضعنا الرخيص.. كوني دوماً كما عهدتك.. كوني "بشاير" أنتِ.. ولا تكوني كما غيرك.. فهكذا أحبك العجوز!

أفنان

تقول بوهن.. بتأتأة الأطفال.. "بابا": لا تنسَ الحلوى والألعاب!!
وكيف أنسى وأنتِ الأنهار.. والجمال والأفنان؟!!
وكيف أنسى وأنتِ حبي.. ووجعي الدائم الحيران؟!!
وكيف أنسى براءتك وبساطتك.. وحبك الأبدي الريان؟!!
وكيف أنسى حروفك تلعب بها الآهات؟!!
وكيف أنسى كلماتك تضيع وسط المرض والحمى والأيام؟!!

لازلت أذكر دموعها.. ماثلة أمام العيان.. ودعائي لطفلتي الصغيرة الجميلة.. يا رب ساعد "أفنان".. والرب أرحم ب "أفنان"!

إذن ما هي الصداقة؟!

الصداقة شيء علوي عظيم.. امتزجت بها إشكاليات كثيرة في حياتنا، حتى غدت نادرة شحيحة، والصداقة ليست كنزاً مادياً، وإنما حاجة للروح، ودفء للنفس، وتقوية للعقل.

ومن هذه الإشكاليات التي تواجه الصداقة، عدم الحب بين الصديقين! ووهن الرابط الذي يجمعهما، فإما أن يكون هذا الرابط زماني، كالدراسة أو العمل، وهو ما تم تصنيفه بالزمالة، أو رابط مكاني، كالجوار والحي. ومعظم الصداقات في الوطن العربي هي نتاج هذين العاملين، وفي كل الأحوال، فإن انتهاء الصداقة مرهون هنا بانتهاء الرابط، كتغيّر المدرسة أو موقع العمل، فيما يتعلق بالرابط الزماني حتى وإن بقيت المعرفة، أو بالانتقال وتغيّر السكن والحي، فيما يتعلق بالرابط المكاني، بالرغم من أنّ هناك صداقات قوية نتجت بسبب هذين العاملين، إلا أنها ليست كافية، ولم تعطنا صورة واضحة عن معنى الصداقة الحقيقية.

هناك جانب؛ بل نوع ثالث مستشر جداً في موضوع الصداقة، ألا وهو: صداقة المصلحة! ومع الأسف الشديد أنها موجودة بشكل كبير جداً جداً، ويخيل لمن يحظى بأصدقاء كثر أنه إنسان متميز،

محبوب، خلوق! لكن ما أن يخفت عنه الضوء، أو تتلاشى أهميته، كفقد منصب هام، أو تغيّر وضع وظيفي أو نحوها، حتى يجد أن أصدقاء الأمس مشغولون جداً متناسينه! وسيكون وقع الألم عليه عظيماً، عندما يعلم أنهم – أي أصدقاءه – يلتقون ويتسامرون دونه، ولا يهتمون حتى بدعوته.

هذا بصفة عامة هو وضع الصداقة في كوكب الأرض، وأخشى أن الإنسان قد نقل هذه العدوى لبقية المخلوقات في الكواكب الأخرى في مجرة درب التبانة، لأن أنانية الإنسان ضاربة في عمق الزمن السحيق تماماً، كعمر الأرض القديم، لذلك أنصح من يبحث عن صديق، بأن يحاول العثور في مجرة أخرى!!!

والصبر !!

جاء الصبر بعفوية لم أعهدها..
وتسلل إلى جسدي بخفة لم أعلمها..
جاء الصبر فتلبسني..
حتى دمعة..
حتى لوعة..
حتى نظرة..
بعثرها.. ضيعها.

جاء الصبر يواسيني..
يحمل أملاً لم أعرفه..
وزمناً إسودت أيامه..
يريدني أن لا أبكي..
أن لا أحزن.

والصبر يملؤني بؤساً..
ويغطيني وجعاً..

ويبعثرني أسفاً..

والصبر لا يدرك..
والصبر لا يعرف..
لا يعرف.
لا يعرف..
إلا وظيفة وحيدة.. عفوية بسيطة..
اسمها..
الصبر..
الصبر!

أنا.. وثلة من مرتزقة الأرض !

لقد تفرق شمل الأحبة، فلا الدار أصبحت الدار التي عرفتها، ولا الأوجه هي تلك الملامح التي أبصرتها، ولا القلوب هي نفسها الأفئدة التي سكنتها، سبحان الرّب.. كيف يتبدل الإنسان؟! وكيف يتحول الحب إلى الكراهية، والبياض يرسمه سواد؟!
إنني في مأزق نفسي غريب، لكن لماذا تتكالب الأمواج وتحاصرني الأعاصير، وأنا مجرد إنسان بسيط جداً، ليس له قيمة، ليس له اعتبار، لماذا هذه الأوجاع تنمو، تزدهر، وتكبر لديّ أنا وحدي؟! لا بل لدى كل البؤساء والمنحطين أيضاً، والفقراء كذلك، والمنبوذين الذين يسكنون العراء، وتلفحهم شمس هجير الصيف.. فتمتزج حبات العرق التي تتكاثر على أوجههم؛ مع هواء ملوث بعوادم المركبات.. فتصبح معالمهم.. مخيفة.. متشققة.. ضاربة في أثر الحياة القذرة الموجعة!
لكن لماذا أنا فقط، ومعي ثلة من مرتزقة الأرض؟! نعيش على هامش دنيا مزورة كاذبة!! لا تحمل أي قيمة حقيقية لمعنى الإنسان والتسامح في هذا الكون الملتهب حقداً وناراً!
لماذا تريدنا الأيام، وسطوة الزمن أن نكون المطحونين أكثر، لدرجة الانسحاق.. ثم التلاشي مع أول هبوب للرياح؟!

من نحن – يا ترى؟! أأناس محطمة من الداخل، أم كائنات هيكلية تسير وهي خالية من أي قيمة إنسانية وسط الضحكات المتعالية، والمنافع المتبادلة؟! أم يا ترى شعاراتنا عن الحب أصبحت مملة، ولم تركب "موضة" حب القوي المتغطرس والتودد له؟! حب الأثرياء "والتحذلق" والمديح الكاذب لهم.. أم حب من يجلس على كرسي المنصب المرموق!!

أين الخلل لنعيش هذه الحياة الهامشية في كل شيء؟! في الشارع، في العمل، تحت السماء، فوق الأرض، متى سنشعر بإنسانيتنا، وبحب عفوي صادق كبير عظيم؟!

أم ترانا سنشعر به ونحن نتوسد الوحدة والأرق في قبورٍ؛ أهالوا عليها قبل لحظات التراب، في تسابق محموم نحو الفضيلة والأجر، أترى ستهطل دموع الغرباء أخيرًا؟! كحبات البرد على قبور بؤساء مساكين معذبين، فتنساب هاطلة من بين تشققاته، فتثير في وجودنا الدوني؛ الضيق الحار شيئاً من البرودة.. شيئاً من الفرحة.. شيئاً من العزاء، لحياة كانت مالحة قاتمة!

أذلاء

عندما رفعت رأسي للسماء في تلك الوهلة بالتحديد، اكتشفت أن نفسي كانت منساقة بعفوية واندفاع، للتمتع بمنظرها الخلاب، ورونقها البهي الذي يغطي الآفاق، ومشاهدة تلك السحب البيضاء المبعثرة على اللوحة العلوية الزرقاء.

في تلك اللحظة بالتحديد، بدأت أحاول استعادة الذاكرة لآخر مرة رفعت فيها رأسي للأعلى، لكن عقلي الخائف دوماً لم يسعفني، لعلها مرة ضاربة في عمق الزمن الماضي السحيق، تلك التي تجرّأت فيها ورفعت رأسي قليلاً.. لطالما صمت أسيراً للقمة العيش.. أو خوفاً من السجن والصراخ!

لطالما سرت وركبت..

نمت ونهضت..

فرحت وبكيت..

وأنا مطأطئ رأسي نحو الأرض..

لطالما.. لطالما.

هل سمعتم؟!

هل سمعتم عن إنسان لا يموت؟!

أو هل سمعتم عن إنسان لا يستنشق الهواء؟!

أو من يريد شمساً سرمدية..

أو آخر يريد ظلمة أبدية..

هل سمعتم بإنسان مختلف عن الإنسان؟!

أو هل سمعتم عن إنسان لا ينام ويهجع..

أو لا يأكل، ولا يشرب..

أو لا يحزن، ولا يسعد..

أو لا يحب، ولا يكره..

هل سمعتم بإنسان ليس إنساناً؟!!

الطبقة الواطية !

عند إحدى إشارات المرور؛ توقفت سيارة فارهة بداخلها فتاة حسناء.. وبجانبها توقفت سيارة نقل كبيرة تحمل أكداساً من العمال المتعبين، بعد يوم حافل بالكدح.

نظرت الجميلة نحوهم.. فشاهدت البؤس في أبلغ صوره؛ يغطي سحنات تلك الأوجه المتسخة.. وشاهدت الحسناء المعاناة الإنسانية في أكمل صورها القاتمة.. فتعاطفت معهم.. ولعنت جور الحياة بحقهم.

فكشفت الغطاء عن وجهها، وجعلت تنظر إليهم.. ولسان حالها يقول: هيّا يا جمع التعساء والفقراء.. هيا يا جموع الطبقة الكادحة، انظروا إلى وجهي الفتان، وجمالي الأخاذ.. هيّا وجّهوا نظراتكم العطشى، القاسية العنيفة، نحو وجهي العذب البراق، ولتلتفت أوجهكم الكالحة التي اتخذت حبات العرق منه طرقاً ودروباً، وسودته الشمس اللاهبة.. هيّا انظروا واطفئوا بنظراتكم لوعة الأمل وحرمان الأوقات.. هيا تمتعوا ولو للحظات بوجهي الذي يفيض ماء وخضرة ورونقاً وجمالاً.. هيا انتهزوا فرصة عمركم.. فلن تظل إشارة المرور حمراء طوال العمر كله.. إنها سرعان ما تضيء لونها

الأخضر، وعندها ستكرهون الألوان الخضراء بقية حياتكم المتسخة.
لكن الفتاة الحسناء فوجئت بواحد من أفراد الطبقة الكادحة المتكدسة في سيارة الشحن يقترب منها.. ويبصق في وجهها.. ولولا أنّ زجاج سيّارة الجميلة موصداً لغطتها النفايات النووية.. وعندها سيحكم على المتطرف البائس بالإعدام.
انطلقت السيارة الفارهة التي تحمل الفتاة وهي مشدوهة من إنكار الجميل الذي وجدته، ومستغربة من الجحود الذي صادفته.. لكنها سرعان ما ضحكت وضحكت.
لتوها اكتشفت أن هؤلاء إنما هم طبقة واطية!!

الموت.. قمة العدالة !

لا زالت كثير من الحقائق في دنيانا لم تعترف بالطبقية والتفاضل بين البشر الذي أُسسنا له، وبالتالي ألغينا قيمنا ومفاهيمنا الجميلة عن الإنسان الواحد.
أقول: إنه لا زالت هناك حقائق ثابتة لم تتغير، أو لم تتبدل في عالمنا المعاصر، وبالتالي كانت بعيدة عن نزقنا وعن أنانيتنا، هذه الحقائق التي لا تميز بين البشر، ولا تفضل جنساً عن الآخر.. أو تحب لوناً أكثر من لون!
لعل من أبرز هذه الحقائق وأهمها حقيقة الموت، ونزفه، وعمقه، وقوته، فالموت جامد، بدون مشاعر، فهو لا يتأثر بالعظيم، ولا يتعاطف مع الوضيع، ولا يشفق على الفقير، ولا يرجو رضا الغني أو الأمير، فالموت قصة قديمة موجعة في مسيرة الإنسان، إلا أنه وبرغم هذا عادل.. يصفع كل إنسان بلا هوادة، فلا يجامل أو يؤجل قراراته، أو يبطئ مسيرته، أو يؤخر مهمته، والموت ينظر لنا نحن البشر، كل البشر، نظرة واحدة، بلا تمييز، أو تعقيد، أو تدقيق، فهو يقوم بمهمته بسهولة وببساطة متناهية، سواءً كان الذي بين يديه نبيلاً أو مسكيناً، شريفاً أو حقيراً، كبيراً أو صغيراً.

وفي الموت تتمثل لنا قمة المساواة، وقمة العدالة، والإنسان المريض قبل دنو لحظاته.. يهرول في سعي حثيث حقيقي بعيداً عنه.. فهو يطلب العلاج في كبرى المستشفيات، وفي أي مكان وموقع، ويتساوى في هذا السعي كافة الطبقات الإنسانية، والذي يؤسف له ويجلب الحزن أنه يشوب هذا السعي تفاضل وتمايز، فأشخاص يلقون علاجاً مميزاً، وآخرون يلقون إهمالاً غريباً، والبعض لا يلقون شيئاً نهائياً، ولكن حقيقة الألم من المرض بالغة، ولا ترحم الجميع، ولحظات الأجل المحتوم أيضاً حقيقة شاملة، لا ينفع معها مسكن للألم، أو مؤجل للوجع، والجميع يسلك الطريق الحتمي.

ليتنا على الأقل نتخلى عن محسوبياتنا وواسطاتنا في المستشفيات، ليتنا نعامل بعضنا بعضاً، على الأقل في تلك المواقع؛ بمساواة وعدالة مطلقة، لأن الجميع في ذلك المكان طلبوا شيئاً واحداً فقط!!

السقوط المريع!!

بماذا يفكر ذلك الإنسان الذي وصل في معاناته حد مسابقة القطط على مزابل المدينة؟! ومنافستها على حاويات القمائم المنتشرة في الأرجاء والطرق!!

بماذا يفكر هذا المهموم المعدم؟ وأين يقف بطموحاته وغاياته؟ وما هي تطلعاته للمستقبل؟ وكيف ينظر للحياة؟ بل ما هي فلسفته عن الوجود؟ كيف يرى نفسه والآخرين؟ أتراه غاضباً حزيناً؟ خائفاً، أم مريضاً؟

ماذا لو اقتربنا منه فوجدناه يبتسم، فنتساءل حينها، هل تعكس هذه الابتسامة سعادته؟ ثم ما نلبث أن نكتشف سر هذه الابتسامة الصفراء، وأنها مجرد تمهيد بسيط ومتواضع، قبل أن يبدأ في استجدائك لبعض النقود!

ثم يتواصل نزف تساؤلاتك مرة أخرى، لماذا وصل الإنسان لهذه القيمة الدونية؟! بل كيف تدرج في السقوط المريع، حتى وصل لهذا المكان المهين؟! الذي يشارك فيه القطط، والكلاب، والفئران سبل عيشهم وطرقه!!

عندما نشاهد إنساناً ينقب في القمائم بحثاً عن طعام! لا بد أن نحترمه، لا بد أن يدعونا هذا المشهد لنتذكر كم هي ثمينة هذه الحياة! فالإنسان يبذل جهده للمحافظة عليها مهما كلفة الأمر من كرامته وأنفته، إنه الهروب حتى عن تلك اللحظات التي نشعر خلالها بنغزات الجوع، والحاجة إلى الطعام.

أما كيف، أو لماذا يعيش الإنسان، مثل هذه الحياة الوضيعة؟! فهو السؤال الذي سنضيع في أتونه بالتبرير والتفسير والتعليل.. ثم سنختلف على التقييم والنتائج.. وسنرمي أيضاً هذا الإنسان بجميع الأسباب أو معظمها! لكن اختصاراً لهذه الحالة المتوحشة.. يمكن أن نسأل قلوبنا عمّا إذا كانت لازالت تنبض بالحياة والحب؟ نسأل ضمائرنا؛ إن كانت ولا زالت على قيد الحياة؟ نسأل أرواحنا إن كانت ولا زالت تحلق في فضاء من الطهر والخير؟ لعلها أصدق، وأبلغ، وأوضح في الإجابة على سؤال أخير وبسيط!! يا ترى؛ من المعذبون في الأرض؟ أهم أولئك المتكدسون في الطرقات، المنتشرون في الزاوايا والأماكن المهملة؟ أم هم السائرون بأنانية، وقلوب لا تصغي؟!!

يستيقظون من القبور !!

يستيقظون من القبور..

يخرجون من اللحود..

يكبرون كالأشجار الجميلة..

العالية العظيمة..

أوجه صغيرة..

بريئة حزينة..

يستيقظون من القبور.. يرمون الحجارة..

يدافعون عن الأم والكرامة..

أطفال.. لكنهم غاضبين وحيارى..

يخرجون من وسط التراب..

يبعثرون بعنف الكثبان..

يسيرون ويهزون الجبال..

لا يخيفهم الرصاص..

ولا أزيز الصوت.. أو حتى الموت..

صغار كبرعم الزهرة..

كحبة القمحة..

كالشهب والنجمة..

صغار يحركون التاريخ..

يركضون نحو الأرض..

يسابقون حتى الشمس..

صغار يستيقظون من القبور..

يخرجون من وسط اللحود..

يكبرون كالأشجار الجميلة..

العالية العظيمة..

صغار يفعلون كل هذا..

من أجل رحابك يا "قدس" الحبيبة..

وساحاتك يا "أقصى" طاهرة فسيحة..

صغار: يفعلون كل هذا..

من أجلي.. وأجلك..

ولأجل الإنسانية.. عندما نست العدالة!

ميلاد

عند ميلاد "روزفلت" قالت أمه صارخة:
"سيكون رئيس الأمة".

وعندما دوت صرخات الطفل "ريجان" قال الأب هاتفاً:
"سيكون رئيساً للشعب".

عند ميلاد طفل آخر، في مكان آخر، أسمى أمنية، أن نجد قوته، علاجه، وتعليمه، ثم "واسطة" لقبوله في الجامعة، ثم المجد العظيم؛ وظيفة براتب ضئيل!!

الخروج

"مارجرت تاتشر" حكمت بريطانيا أربعة عشر عاماً، في السلم والحرب، تزوجت، أنجبت، وأجادت الطهي.

مسيرة امرأة أخرى، تبدأ بالخروج الأول:

الميلاد..

ثم الخروج الثاني السعيد:

الزواج..

ثم الخروج الثالث الحزين:

القبر..

حتى المخارج شحيحة!!

ويــل

ويلٌ للموت المختال على أحزاننا الدفينة..
وللكراهية المتربصة بقلوبنا الخائفة..
بل ولعذابات الإنسان وأوجاعه..
لأنينه وآلامه..
لخوفه وتردده..
ولليل يكتنف المعذبين..
ولشمس تلهب المساكين..
ويلٌ لكل الأمور السوداء..
للآلام المروية بدماء الأبرياء..
ولدموع الكهولة والطفولة على حد السواء..
وللأرض التي تنبت الأشواك، وتنام فيها الورود!

في أروقة وطن!!

إنها الحياة.. حيث يضحك المنتصرون نشوة..
ويضحك الضعفاء فرحة..

إنها طقوس عالم قدره التغير والتبدل..
والإنسان خلاله مطحون بمطاردة هذا التحول..

وهي معالم كون نحاول أن نفهم سر عنفه..
وأن ندرك أسباب غضبه..

هي الكراهية في أبسط معالمها القبيحة..
رفيقة الشيطان الذي ازداد نشوة وثقة..

* * *

من أغوى قلبي؟!! من تلاعب بعقلي؟!!
يجتاحني خوف الأمس.. خوف اللحظة.. وخوف المستقبل..

مسيرة الرهبة في عالمي؛ ممتدة.. منذ الميلاد..
منذ أن خط القدر الهوية "عربية"..
والسراب زاد المبتلين في مستنقعات التغير..
شيئاً من الهواء النقي.. أمل المنتظرين في محطات الوهم..
تبقى الحقيقة أو تسافر..
يزدهر الظلم أو يموت..
تنتشر الحرية أو تحبس..
جميعها لا تغير من مواقع الرهبة..
الخشية..
الهلع..
والخوف.. والخوف.

الإنكار

أحياناً.. يتملكك شعور بالسعادة، أو التردد، وفي أحيان أخرى تقف عاجزاً مع أناس أحببتهم، عاجزاً عن إفهامهم بأنهم يسيؤون المحاولة، بعض المشاعر لا يمكن تصديقها، أو التفوه بها، فتظل حبيسة النفس والوجدان، تحرقك، تهدم الأبنية الداخلية جميعها، وتدمر ما تبقى من حب في قلبك، تجعلك أنقاضاً، هذا هو الانهيار، انهيارالعطاء في الحب، انهيار التفكير السليم في تعاملنا وصدقنا وتسامحنا.

إنه تدمير لمحاولات التناسي وفض الطرق، تدمير لكل جميل، وحديث في نفوس عديدة، أحبت في يوم، وحاولت الكراهية في اليوم التالي.

العطاء صفة أخرى لشريحة همّها المعروف، بذل الجهد والتعب، لكن لآخرين؛ يظل العطاء صفة إنسانية لا تستوطن قلوب جميع الناس، العطاء حياة، وليس كل إنسان جديراً بها.

الإنكار ليس لفظاً أو كلمةً وحسب، الإنكار عمل وسلوك، الإنكار واسع يكون بالنظرة، بالكلمة، بالممارسة الرديئة، ليظل صفة تقتل العطاء، وقبل ذلك تدمر من مارسه سلوكاً أو حباً في الحياة، بأنانية

مؤلمة، ليجد نفسه فيما بعد وحيداً، تكتنفه أيام الذبول.

وأما العطاء فيظل معنى لا يمكن تعريفه، إلا من خلال معاناة الفقراء والمساكين، من خلال علاج آلام البؤساء والمعدمين، وهو معنى عظيم لا يستطيع البخلاء وأشباه البخلاء التوشح به، أو وضعه وساماً على صدورهم!

السؤال الكبير

يدور داخل الصدر الذي ارتويت منه مراراً، وضمتك جوانبه مراراً، سؤال صاحب ما فتئ ينمو على شفق العمر، حتى غدا عجوزاً هادئاً، سؤال يتكرر في كل لحظة جفاء أو صد، في كل لحظة تقطيب لجبينك، عندما أحدثك، وفي كل لحظة تتأفف من حديثي معك.

سؤال كبير، ما الذي تغيّر في داخلك يا صغيري حتى تعاملني معاملة الاستكبار والجحود؟!

ما الذي أحرق قلبك الطيب الأبيض، حتى أصبح اليوم كتلة من السواد؟!

هل تعلم أنني لا أستطيع أن أتركك تتعقب عقلك بالتفكير في أجوبة بسيطة!! لقد كنت يوماً من يصنع انتصاراتك وإنجازاتك، وكنت كذلك، دفترك الوحيد الذي تضع بين أوراقه همومك وأسرارك، ذات يوم كان حناني العظيم هو رفيقك وصديقك.

ببساطة كنت قاربك القديم الذي عبرت به أمواج التحدي، وأما الآن، فإني الحمل الزائد في سفينة إنجازاتك الجديدة!

بماذا تجيب؟ ماذا تقول؟

دعني أموت بصحبة علامات الاستفهام، وعلامات التعجب، لكن يا صغيري لا تشغل عقلك بأمور تجاوزها الزمن، وتحداها القدر.

موتى لا يموتون

كانت محاولات الطفل المسكين للهروب من الحزن المرير، بسيطة بألوان الوجود، حيث ضحكات بدون روح، واستجداء النسيان، ومكابرة الألم، والتنكر للحزن والوجع، كأنه لا يعير تلك الإنسانة التي غادرت منزلهم الطيني اهتماماً يذكر.

كان الحي العتيق حزيناً لمصابه، وفقده للأم الحنون، في تلك السنوات الماضية كانت الألفة بين الناس غزيرة ودافئة، كان عند تجواله بين الطرقات الترابية، وسط وهج الحرارة، لا شيء يخيفه رغم ضآلة جسمه وصغر سنه، يشاهده سكان المدينة الصغيرة النائية ضاحكاً، يسمعهم يقولون ما أنقى الطفولة، حيث تنسيه الحنان المفقود.. لكنهم لم يعلموا أن الطفل الحزين قد اتخذ سطح المنزل الطيني مزاراً لأحزانه وأوجاعه العتيقة، إلا في ذلك اليوم.. عندما صعد الأب العجوز نحوه، وقال له: يا صغيري، يوجد موتى لا يموتون! قال الطفل هامساً بأمل كبير: كيف هذا؟!

كبر طفل الأمس الحزين، وكبر السؤال كيف هذا؟ اليوم أصبح الشيخ العجوز ممدداً، متعباً، مريضاً.. توجه نحوه طفل الأمس الحزين؛ قائلاً: "موتى لا يموتون، كيف هذا"؟! ابتسم العجوز نحو

طفله الصغير، وقال بوهن شديد، وبصوت خافت حزين: مضى وقت طويل على سؤالك، وأملك الكبير، وحانت لحظة الإجابة، ستكتشفها أيها الصغير في يوم قريب.. أغمض جفنيه وراح في سبات عميق من الموت الرهيب، منذ ذلك الحين والصغير يقول نام العجوز، وسيعود.. وسألقاه بذلك الهدوء البسيط، ومن سيقول مات العجوز، فإنه لا يعلم أن هناك موتى لا يموتون!

روعة الاختلاف

انطلق في دواخل النفس، وانظر من بها، من يسكنها، ولا أتفاجأ إذا شاهدتها مهجورةً، تسكنها الأتربة، مغبرة مخيفة، ذلك أن سكانها في الخارج، أو يستعدون للخروج.

سوف تشاهد وردة حمراء.. شديدة الاحمرار، لا تلمسها ولا تحاول، هي رطبة جداً، قد تجمعت فيها كل دواخل النفس.

فيها قلب مكلوم، أشقاه المداوي، فلا تحاول علاجه، وكيف تداوي من أعياه طبيبه؟!! فيها رفيف الوجد أهزوجة على ثغر طفل، ينشد قصيدةً نظمها بعد ملحمة حربية من أجل الحب.

وفيها انكسار.. لا تحاول تقويمه.. فكيف تصلح من تشفيه حروب الحب؟

نعم؛ بها طفلة أخرى تلوح بأغصان الزهور، وتردد أنغام الحرية والفجر الغائب بعدة كلمات، وعدة ألحان، وعدة لغات.

الجسد الممدد المتعب، به روح أشقاها المرض والداء.

ورحلة أخرى داخل مدينة المعلومات متصدعة الجدران، لها عمقها الضارب في الزمن، وبها عدد الأيام التي عاشتها، مدينة الواقع والخيال "العقل"، الروح المريضة تموت أو تهاجر، والعقل المرهق بقي

متعباً يستبطئ النهاية، يستبطئ الموت!
تناقض التكوين، وروعة الاختلاف في الكيان الواحد تظهر على الجسم، على الجسد الممدد يبقى العقل، وتذهب الروح، يموت الجسد، أو لا يموت!! مثلما لا تريد طفلتي الحرب من أجل الحياة، يريد عقلي البقاء من أجل وقت فيه وعد بالسعادة، ومثلما تتجرع صغيرتي الحرب، يغرض على عقلي الموت.

الوقت لا يسمى !

أعوام مضت بخفة عجيبة منذ سنواتنا الدراسية الأولى، وبدأت الذاكرة تضعف، أصابها تسرب معلوماتي لكنه غير خطير، فكل الذي نسته أصدقاء الطفولة!!
في ذلك المساء تذكرت ذاك الطفل الغاضب دوماً، الحزين دوماً، والوحيد دوماً، أو ربما لم أنسه من قبل، لأنه الوحيد أيضاً الذي كان يفكر بيننا — نحن الصغار – في ذلك الزمان العتيق. اقتربت منه، فعرفني وابتسم، وبدأت الأسئلة — بعفوية — تنساب على لساني: أين أنت؟ ما هي أخبارك؟ رد قائلاً: لم أذهب بعيداً، فلا زلت على هذه الأرض التي طالما عشت فيها غريباً، أشقتني خلالها أيام الوحدة الصعبة؛ في لحظات البحث عن الذات، أوقات انتظار الفرصة.
لقد حملت ما في جعبتي من همِّ الأيام، وأوجاع الساعات التي كتمتها في قلبي، لقد تطور همّي حتى أسقطني، منذ أن بدأت أدرك وأنا انتظر الدور الذي يجب أن أمارسه، وأقوم بتنفيذه، حتى إنني لازلت — يا صديقي — أبحث عن موطئ قدم، الآن فقط؛ من أجل أن أعيش، نعم؛ من أجل أن أعيش، قضية الطموح، قضية الغايات الكبيرة مؤجلة لوقت لا يسمى!

بل تؤثرون الحياة

عاد الصغير من مدرسته، والشمس تتوسط السماء، تلهب الأرض، وقد علا محياه الاحمرار وتصبب العرق، عندما وصل لمتجر أبيه.. دلف وشاهد العجوز وهو قابع خلف مروحة كهربائية صغيرة مهترئة.. كأنها لا تعمل إلا حياءً من هذا العجوز.. تبعث الهواء الساخن.. فالصيف حار، والشمس ملتهبة!

العجوز رحب بطفله.. وقدم له الماء.. وجلس الصغير يحكي يومه وتفاصيل ما درسه وتعلمه، وبينما الصغير يتكلم دخل أحدهم إلى المحل.. وصرخ غاضباً في العجوز، فقد خشي عدم تسديده بعض الالتزامات المالية، بسبب ركود البيع، جعل العجوز يهدوء يطمئنه بأنه سيسدده في الموعد المحدد، وأخذ الرجل يقول: إن محلاً كهذا لا يمكن أن يعمل، والله لو أعطيتني إياه بما فيه لما أخذته بفلس.. وغادر!

العجوز نظر لصغيره، وقال: أين كنا؟ فأجابه الصغير: لقد أخبرتك بأني قد حفظت سورة "الأعلى". فابتهج العجوز، وقال: اقرأها.. فبدأ الصغير بترتيلها، ويتأتئ ويخطئ، فيرده العجوز ويصحح أخطاءه، حتى وصل الصغير عند قوله تعالى (بل تؤثرون الحياة

الدنيا والآخرة خير وأبقى).. وهو مطأطئ رأسه، لكن العجوز لم يصحح له أو يكملها، فجعل الصغير يرددها: (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى).. لقد ألهتنا الحياة، انغمسنا في نعيمها، ونسينا النعيم الأبدي في الجنة، يارب فضلك.. يارب سترك.

الصغير فتح فاه، واتسعت عيناه ذهولاً واستغراباً.. وجال بنظره في هذه الحياة التي يعيشها العجوز، وفي محله الصغير المهترئ، الذي لا يوجد فيه سوى أقل القليل من بضاعة زهيدة، والبقية صناديق فارغة.

وتساءل: أين أثر حياة النعيم وحبها؟ هنا لا يوجد سوى أطلال من الحزن والفقر، أين حب الدنيا؟

أما العجوز، فقد بدأ في إغلاق محله الكئيب، لقد أذّن المنادي لصلاة الظهر.

مسكون بهم الحزن

مرة قال لنا عجوز: إن الهم قتله! عجبنا لأنه كان في الثمانين من عمره، بعدها عرفنا أنه يقصد الشعور بالآلام والحزن، وبعدها الشعور بمرارة الهزيمة، لم نكن عندها قد تعلمنا ألم الأحاسيس، وحزن الشعور، ولم نكن نعرف طعم الهزيمة، والطعن من الخلف، وعندما مات العجوز احترقت أحاسيسنا، وذبلت مشاعرنا، وأصبحت الحقيقة ماثلة، لأننا فهمنا أن التحول كان يضرب بعنف في جذور ذلك الجيل النبيل، لكنه لم يقوَ عليهم، بل عاشوا محبين، متسامحين، متساعدين، ومتآلفين رغم مصاعب حياتهم، ومصائب أوقاتهم، لأن العجوز وهو يستعد للنهاية شاهد طقوس التحول تعصف بأبنائه، وتكاد تقتلع قلوبهم؛ تقتلع كل جميل غرسه في نفوسهم.

لقد غطاه الهم، وكفنته مشاعر الألم، ثم صاحبه في رحلته الأخيرة.. الحزن!

الاستسلام

أيها الموت؛ لا زلت تمارس هوايتك، لا زلت قاسياً، عنيفاً، لا زلت لا تأبه لأحد، ولا تهتم بأحد، لا زلت تقسو على قلوب مسكينة، وتضرب بعنف نفوساً بريئةً.

آه أيها الموت، لو كنت متمثلاً تشاهد دموعنا، آه لو عرفت كم بكينا بسببك، كم صنعنا أنهاراً وبحاراً من الألم الفاضح، والحزن المهروس داخل أرواحنا المتعبة.

أيها الموت، لماذا تختار طفلاً مسكيناً؟! لماذا تسرق كيانه الغض، وتترك روحه الصغيرة تغادر للأعلى.. ونحن في أمّس الحاجة لها؟! جسده، ماذا أفعل بجسده الصغير المنهك بسببك؟! ماذا أصنع دون أن أسمع صراخه، بكاءه، دون أن أشعر بوجوده!

أيها الموت، لقد اقترفت جرماً، أيها الموت؛ أنا أول الشامتين بك عندما تذبح، عندما تقهر، عندما لا يكون لك قوة، أنا أول الضاحكين الساخرين، سأروي عيوني بمشهدك تغادر للأبد.. وأرويها حباً لمن خلده الله.

الموت بلعنة !

تهيمن علينا المادة، تسكن حياتنا، تضربنا بقوة، وتأكلنا بقسوة..
تهيمن علينا، تغتصب بياضنا، تقتل أرواحنا، تكتم أنفاسنا، فتجتاح قلوبنا وتبتلع ما كان وما سيكون، تهيمن علينا وتستولي على حياتنا، وتحولنا مسخاً ومخلوقات غبية، فنعيش حياة ترفرف فيها حشرات زرقاء، غريبة السلوك والعادات.
تهيمن علينا المادة، منذ أن انتهى عصر العطاء، وانتشى زمن الأغبياء!
تهيمن علينا، وتظلمنا بقسوة، ونعشقها بنشوة، ونموت بلعنة!

رثاء

أيها المسكين الغارق في بحور الثورة والألم، أيها النائم في سبات البراءة والبياض النقي، يا من تنظر بقلبك الكبير، وتسير على أشواك الظنون المسالمة، وتتحدث بنقد من كلمات موشحات بالمديح.
أيها الصابر على حياة الجفاف، أيها المبتسم للأقدار والإسفاف، وداعاً يسيل منه الصبر ارتجافاً، وتموت منه النفس اعتصاراً، وداعاً أبكيه في ليالي الظلام الحالكة، وشوقاً يغذي الروح الهائمة، وداعاً في كل لحظات الذات المعذبة، وفي كل لحظات الوحدة المؤرقة، وداعاً بحنين رهيب، وشوق عظيم.
أنا المسكين؛ كم طافت بي كلمات العذاب، وكلمات العزاء، وكلمات الرثاء! وكم اجتاحتني ظنون الوجود، ونظرات المجون!
وكم ظللت — بعدك - مكشوفاً للصقيع وللهيب، وكم ظللت بعدك في صحراء العناء، وكم عشت بعدك في غربتي أصارع البقاء، وكم بقيت بعدك تدك حصوني ألسنة الدخلاء، وكم بعدك شعرت بالنار وبالوحدة الصفراء، وكم مزقتني نظرات الغرباء، وكم أجد حبهم مدفوعاً بثمن العطاء، وكم أنا — بعدك - بحاجة لظلك سوراً عن الأغبياء!

أنا المسكين الذي لم يفهم سر الوجود، وحكمته، أنا الحائر وسط جموع التائهين، وأنا فرد من أكداس المدهوسين، المطحونين، المعذبين، أنا القابع في البيوت الورقية، والشوارع الشقية، والأحياء القديمة، والمدن المهجورة، أنا المهموم بالسواد والظلام والألوان الرمادية.

فلتسمعوا رثاء المساكين، ودموع الآخرين، وهموم الخائفين، واكتبوا رثاء المطحونين، والبؤساء المعدمين، الذين يموتون في صمت، ويدفنون في صمت، اكتبوا أن الإنسان واحد، ولد هكذا، لم يتغير فيه إلا شيء غريب، كان شيئاً لم نره، كان داخل جسده وكيانه، فياله من تغيّر!

كتبتك

كتبتك بكل مشاعر الدفء و الهدوء، كتبتك أحزاناً وآهات ولحظات غارقة في الذات، كتبتك أفكاراً مترددة، وأوقات انتصار، كتبتك صدق حزن مخبوءاً داخل صدر مسكين، وصورة كهل مضى به العمر، وغدرت به الأيام، كتبتك أماني الشيخوخة العظيمة، وهدوءها المميت، كتبتك بلغة الأقوياء، وتبرير الضعفاء، وبكل معارك الحياة، شريفها ووضيعها، كتبتك ابتسامات مهروسة مقتولة، وضحكات مالحة مزيفة، كتبتك دنيا الوضوح الجديد، ومولد نور عجيب، وضوءاً غريباً، وشمس المدار البعيد، كتبتك ورداً وفرحة روح، وزهرة وبلسم نفس، كتبتك بكل اللغات الممكنة، وبكل مشاعر الغرور، والخضوع، وبتأتأة الألفاظ، ولغة الأطفال، كتبتك بالكلمات المبهمة، والحروف المسننة.

ولا زلت أكتبك.. أكتبك.. وأكتبك.. حتى الرمق الأخير.. وتوقف الأنفاس!

لا أستجدي !!

تراه لا يهدأ.. يعدو بين السيارات لبيع مناديل زهيدة، عند إشارة المرور.. ووقف احتراماً لجسده الغض؛ كل الجوامد.. وكل الكيانات المتبلدة.. اقترب من سيارة فارهة.. قدم بضاعته التعيسة.. أخرج سائقها ورقة نقدية.. وأعطاها للصغير.. قال الطفل: لا يوجد عندي (صرف)، رد الرجل وهو ينظر لأطفاله وزوجته، وهو منتش بانتصاره: بضاعتك جميعها (لا تكفي للصرف)، هيّا خذها واذهب! تسمر الصغير في مكانه، وقال: ألا تريد المنديل؟! ضجت السيارة الفارهة بالضحك.. وقال الرجل: (خذ الفلوس، واذهب أنت ومناديلك).. قذف الصغير ورقة النقود في وجه الرجل، وأسرته قائلاً: أنا لم أكن أستجدي!! وتوجه راكضاً بين السيارات الأخرى المتوقفة عند إشارة المرور.. هناك نحو سيارة أخرى قد أشار له سائقها.. بأنه يريد شراء المناديل الزهيدة!

أنا سميتك..

سميتك أملاً، روحاً، زهرة، وهواء بارداً، سميتك الحب الذي أحتاج، ورغبة الحياة، وورود البستان، وطيف المكان، وقلبي، وحاضري الولهان.

سميتك البياض الأبدي، النقاء السرمدي، وتدفق الوفاء، وبلا حدود العطاء، أنا سميتك دمعتي المسكينة، والذهول الحيران، فأنت درسي الكبير، دربي العظيم، وأملي الوحيد، وأنت النقاء الغريب، وشعاع النور البعيد.

صغيري – سميتك – بكل الجمال، وبكل لغات الصمت العجيب، والخوف الرهيب!

الوعد السعيد

هنالك بين تلك السهول؛ تبكي امرأة عجوز، يد المنون أخذت زوجها وطفلها الصغير! هناك كانت امرأة عجوز تبكي سطوة الزمن، وقوة القدر الذي لا يحفل بأحد.

هنالك بين تلك السهول بكت امرأة حنون، مولودَها العجيب.. قبل لحظات مضى بين أغصان الورود.. سائراً نحو المجهول.. تاركاً امرأة حنون، تطلب عودة المستحيل!

هنالك بين تلك السهول ستبكي امرأة الغد الغريب، أيام الذبول، وأوقات السواد الرهيب، وستقول: أفتقدك يا طفلي الجميل!!

هنالك بين تلك الجموع امرأة الوعد الحزين، وتاريخ الموت الرهيب، سيسجل بكاءها والأنين، وأنها يوماً دعته لفراشها الوثير.

هنالك، حيث يضحك الخائفون، والبؤساء، والمتعبون، هناك تسير سوياً حشود الحضارات والأمم، ونبلاء القوم، وأقزام المجتمع، هنالك بين تلك الجموع المهروسة ينتهي الموت، والخيال، هناك حيث يتوقف الشك والسراب، وأحلام القوة والكلام، هنالك رفات طفل صغير، وأم عجوز لم تبدأ احتفالاتها من قبل، هناك بداية الوعد السعيد، لأم عجوز؛ صاحبها الخوف والحزن العتيق!!

علمتني

علمتني كيف أحيا الحياة، وكيف أعيش في دنيا أنت تعرفها؟ علمتني كيف أبكي، عندما تغطيني أحزاني، وكيف أتواضع عند أفراحي، علمتني كيف أعبر عن بهجتي باستذكار شريط أوجاعي، وأيامي الحزينة، علمتني أن السعادة لابد أن تكون مكسورة، وأن الفرحة لابد أن تكون منقوصة، علمتني كيف يصبح الملح كالسكر في عيوني، كيف طعم الحرية يكون كمشهد الصريع المسكين، علمتني أن الحي دورة تحتمل الانقطاع، وطريق جميلة مليئة بالأشواك، علمتني أن اليأس ليس من طبع الأبطال، وأن الكآبة ليست في دروب الواثقين، علمتني أن الوحدة خلوة الزاهدين، وأن الموت راحة المؤمنين، علمتني بلا سبب، وأعطيتني سر الحياة دون ثمن، فعش في كنف ذكريات طفل الأمس الحزين، وطفل اليوم الحزين، وطفل المستقبل الحزين، فأنت علمتني الأمر العظيم:
كيف أعيش؟!

معرفة الحلزونة

هل تعرفون قصة الحلزونة التي عاشت داخل القوقعة؟ لقد تصورت أنها تعرف الدنيا، وتعلم خبايا الوجود..

تصورت أن هذه القوقعة التي تسكنها مساحة هائلة في حيّز الكون، وأن القوقعة أعطتها الصورة الكاملة عن وجودها، لكن الحلزونة التي اقتربت من العصفور معتقدة أنه فراشة، عرفت فداحة خطئها، وهي في طريقها نحو جوفه.. وهي معلقة بمنقاره، لم تعطِ القوقعة الحقيقة للحلزونة الصغيرة الجميلة عن العالم السحيق.

مهما كنّا نظن أننا نعرف الآخرين، ونعرف أشكال الحياة المختلفة، فإننا في كل حين سنكتشف حجم خطئنا، حجم جهلنا، تماماً كتلك الحلزونة الصغيرة!

ورقة التقويم!

هذه الورقة القابعة في مكتبك، أو المعلقة بحائطك، تتربص بك، انتظرت هذه اللحظات ثلاثمائة وأربعة وستين يوماً، ليحين دورها، عندما تطويها تكون قد طويت عاماً مضى.. مضى بآلامه وأحلامه، بضحكاتنا وأحزاننا، بطموحاتنا وآمالنا، عاماً مضى من الركض المتواصل، والسعي الحثيث، نحو أهدافنا وغاياتنا النبيلة.

ستمتد أيدينا نحو هذه الورقة الصغيرة بشجاعة بالغة، وفي تلك اللحظات سننسى، أو نحاول أن ننسى تلك الهزائم التي منينا بها، سننسى تلك الكلمات القاسية التي تلقيناها من الآخرين، ستصبح جميعها ذكريات عام قد مضى.

ومع بداية العام الجديد سنشتاق لأصدقائنا الذين آثروا الابتعاد عنّا، متناسين أن يقولوا لنا الأسباب، لكننا نجعل دعواتنا تواكب ذكرياتنا الجميلة معهم، في هذا الجديد سننظر لكل شيء بشكل مختلف، سنرفع شعار الحب والتسامح مع كل الكائنات.

وسنبكي قليلاً أو كثيراً أحبتنا الذين قسا عليهم الموت، ورحلوا وفي عيونهم الوفاء، وفي وجناتهم ابتسامة الصفاء..

ولورقة التقويم الصغيرة، نعم حان دورك، فغيِّري عاماً ألفنا ألوانه،

واستنشقنا عبيره، وكتبنا اسمه.. عاماً ضحكنا في لياليه الجميلة على سفوح الجبال، أو وسط الوهاد، أو على شواطئ البحار، هو نفسه العام الذي عاد وأبكانا حنيناً، شوقاً، ذكرى، التياعاً، وحباً.
يا ورقة التقويم الصغيرة، حان دورك، وحان دورنا بأحلام جيدة، وآمال جديدة.

نحن لسنا..

نحن لسنا أغبياء، وإنما نحن طيبون جداً، مشاعرنا دافئة، وقلوبنا مفعمة بالحي، ونحن لسنا ضعفاء، ولكننا نؤثر أن نتلقى الضربات عن أصداغكم السمراء، أو البيضاء، أو الحمراء، أو الصفراء.
نؤثر الحياة بعفوية، بتلقائية، وتفرحنا الكلمات البسيطة، ننتشي.. وننتشي.. مثل سعادة الأطفال.
نحن لسنا مثاليين، لكن يقتلنا الصريخ، وتقض مضاجعنا مشاهدات الطفل الجريح.
نحن نموت في اليوم ألف مرة ومرة، تقتلنا أوجاعنا وآلام السنين، وقلوب صماء بكماء، لكننا بكل تأكيد لسنا إلا مخلوقات هامشية في الحياة!

لست إنساناً !

كلما خسرت صديقاً.. كتبت رثاءه، فأصبح لدي مجلد من المراثي، وكلما خسرت صديقاً.. بكيت.. وطحنت نفسي وسط نهاراتي المتهالكة، وتلك الليالي المظلمة، وكلما خسرت صديقاً، حزنت حد الذهول الصعب، وحد التعب المرير، فكلما خسرت صديقاً، طافت بي ضاحكة أحلام الوحدة القاسية، ولون الحياة المالح!
كلما خسرت إنساناً شعرت بأني أنسلخ عن إنسانيتي، ولا أجد كائناً كونياً يشبه حالتي الانعزالية، حيث تنعم الأرض بالقطعان والمخلوقات الاجتماعية، وكلما خسرت إنساناً أشعر بفضاء متناه لا تتقافز فيه الكائنات، ولا توجد به عجائب وقدرات، فكلما خسرت إنساناً أنفصم عن إنسانيتي، وأدرك أنني لست إنساناً، إنني شيء آخر، أو شبح متلبس جسد إنسان راحل، وهكذا كلما خسرت إنساناً تساءلت عن المسخ، كيف له أن يختفي خلف كائن علوي جميل شفاف محب، اسمه "إنسان".
كلما تعبت من الأنين والهذيان، أصل لمرحلة الاستفاقة، لمرحلة التوازن، فأعرف حقيقتي.. إنني لم أكن في أي يوم من الأيام إنساناً!!

وقت من الضياع

هذا العجوز الممدد تعباً.. مرضاً.. وإعياءً.. ينظر يميناً؛ لا أحد من أبنائه؛ ينظر يساره، لا أحد من أحفاده.. يلتف حوله الأطباء فقط.. تنساب دموعه.. فيشد على يده أحدهم بحنان!!
فيقول العجوز، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: لا.. لا.. لقد كان ذلك وقتاً من الضياع.

الكلاب أرحم !

الكلاب تملأ الأرجاء بنباحها المزعج.. تغدو في مملكتها وسط الخرائب والمدافن والمزابل، لا أحد ينازعها المكان، ولا أحد مهتم بهذا الحيز المنسي وسط وهج الحضارة، وصخب المدينة!

لكن الكلاب بدأت تكشر عن أنيابها، بدأت تصبح مسعورةً متوحشة، الدخلاء إلى مملكتها أصبحوا كثراً، والمزعجون لها في عالمها يتزايدون، كأن لسان حال هذه الكلاب، يقول: إن هذا الإنسان دخيل، وحياته أنانية، وعمره مغرور، لو اتخذنا القمر لنا وطناً لاجتاحه! إنه يضيق أن يرانا– نحن الحيوانات– ننعم بمكان ننام فيه.. أرض نعيش عليها! قررت الكلاب محاربة الدخلاء الجدد، قررت إرهابهم، طردهم، افتراسهم، فالأرض لا تتسع للجميع، ومصادر الأكل قليلة لا تحتمل عبث الإنسان، وتفتيشه، ونبشه.

لكنها – أي الكلاب – تراجعت.. قررت فسح المجال لصديقها الأزلي الإنسان، لأنها لأول مرة تشاهده مسكيناً، بائساً، جائعاً، ولأول مرة تراه مجرداً من كبريائه وقوته، ولأول مرة تجده ضعيفاً مطروداً تدوسه أرجل أخيه الإنسان، ولأول مرة يكون بهذه الحالة المزرية من البؤس والإفلاس، لأول مرة!!

أين أتوقف؟

ثمة شمعة من الأمل لا زالت تنير رغم الرياح العاتية، رغم موجة شديدة وتيار عنيف، هذه الشمعة تضيء.. لم تنطفئ، لم تتمكن الرياح، أو الموجة، أو ذاك التيار إطفاءها، لم يستطع أحد أن يخفي نورها، أصبحت مثلي في الطموح وحب الغاية، لكنني حزنت عندما شاهدتها تضمحل، وتسير درب الفناء، لقد كانت قمة في التضحية.. تحرق نفسها من أجل غيرها.. لقد كانت تقاوم الرياح بشدة، لكنها توقفت عاجزة عن مقاومة الزمن.

نعم الزمن، والنار.. ذلك أن النار التي نبعث منها النور ذات ثمن باهظ، وكان الوقت هو الكفيل بسداده.

ثمة شمعة من الطموح وحب الغاية وسعة الإدراك، مشتعلة كل يوم تغذي النفس بنور من الأمل، لكن هل يلعب الزمن لعبته؛ فتختفي هذه الشمعة وضوؤها الخافت؟! هي شمعة تنير دروب النفس الصعبة رغم القسوة، رغم التعب والإرهاق، رغم الحزن والأسى، هي شمعة لا زالت تنير.. لكنني أدرك أنها لن تظل إلى الأبد.

بنيان الطموح قلعة منيعة داخل وجدان المعذب بحب الغاية الكبيرة، بنيان الطموح سور ضخم من معاني الأمل، الاجتهاد

والمثابرة، والطموح ينكسر.. واللّهف يقوى، والألم يكبر ويتشعب، وتندمل جروح أخرى، ويسير المركب وسط هذه المتناقضات، ويجد أثناء رحلته عدة مراكب مهجورة، مكسورة، ومعطوبة لم تستطع المواصلة.. تتجاوزها.. وتظل تسأل نفسك وجوارحك: هل هنا أم هناك سوف أتوقف؟! وتظل تسير.. ويظل السؤال.. أين أتوقف؟

لا تغضب من الفقراء

هذا طفل ضاع صراخه وسط الزحام.. ونحن كسراب الزحام الذي لا يسمع الصراخ.. هو كقلب تعب الأنين والحب وأصبح ركاماً.. ونحن كقلوب جموع الناس المتعبة.. هدّها الكدح.. المشقة.. والأنين.. يبحثون عن الأنا.. يخافونك.. يخافون الغرباء.. يخافون العطاء.. وكلمة استجداء.. لكنهم بؤساء منبوذون وسط العراء.

لا تغضب منهم لأنهم فقراء.. أبداً.. أبداً لا تغضب من الفقراء!

الأموات

الأموات لا يدافعون عن أنفسهم.. ولا عن كرامتهم.. والأموات لا يدافعون عن كبريائهم.. أو أنفتهم.. إنهم لا يدافعون عن ثمين قد كان في حياتهم.

وهم وحدهم الذين يتشبثون بالصمت.. وحدهم الذين لا يجيبون الطفل الصغير على اسئلته العفوية، عن معاني الظلم والإهانة، وأسبابها!

وحدهم هم الذين لا يصغون للقلوب المسكينة، والأرواح البريئة، التي مدها التعب والتجوال والأنين في طرقات القسوة، ومسالك المجهول.

وهم ايضاً لا يشفقون على البؤساء.. ولا يتعاطفون مع المساكين.. ولا يواسون المنبوذين.. الأموات – فقط – من يفعل كل هذا!!

فيالنا من أموات!!

ربما..

ربما أنت من عالم آخر.. ولا تنتمين لهذا الكون المرتجف.. ربما أتيت من إحدى المجرات البعيدة.. تعيش إحدى كواكبها مخلوقات جميلة.. وفي ذلك الكوكب العجيب.. لا توجد فروقات وطبقات.. ولا توجد آهات وأحزان.

ربما جئت مع قومك في رحلة استطلاعية لكوكب الأرض.. وربما هربوا، عندما شاهدوا الفقر.. الحروب.. والبؤساء.

ربما ارتجفوا وظنوا أننا مخلوقات تعيش على الدماء.. مخلوقات تقتل أطفالها.. وتعذب صغارها.. ولا ترحم عجائزها!

وربما أنهم في غمرة خوفهم؛ نسوك وغادروا – سريعاً – بدونك..

أقول: ربما.. ربما.

ربما تكرهين نفسك، لأنها لامست نفوسنا المغرورة.. وتقسين على قلبك، لأنه ينبض بالحياة في روض دنيانا.. ربما لن تعودي لكوكبك البلوري الجميل.. ربما لن تشاهدي نجومه وأقماره الخضراء.. ربما وهجك هو ضوء الرحمة.. الحنين.. والشفقة.. ربما نستمد من روحك الصفاء.. النقاء.. والإخلاص.. أقول: ربما.. ربما.. يا أجمل من قالت: "ربما".

يظنون

يظنون أن الموت سيطوي أثرك.. كما طوى حياتك، وأنهى وجودك.. ويعتقدون أن الموت أوقف مسيرتك الطويلة التي يقولون إنها مليئة بالنتوءات والإخفاقات!

يحسبون أن الموت قادر على أن يفعل كل شيء.. وأن الموت ينهي أريج ذكراك.. لكنهم – سيدي – لا يعلمون شيئاً.. ولا يفهمون شيئاً.

من قلوب وجلة لا يمكن أن يفهموا حقيقة الحب ومعنى العطاء.. من أذهان متعبة من الكراهية.. لا يمكن أن يفكروا في معنى الابتسامة وسط الجحيم.. ومعنى العطاء مع حالة من الحرمان.. ومعنى النجاح في تلابيب الجحود.

إنهم يا – سيدي – حالة من تشرذم الإنسانية المعذبة بالحقد.. إنهم لا يفهمون معنى ثمانين عاماً.. من الألم.. الشقاء.. الحب.. والعطاء.. إنهم لا يفهمون.. وغير قادرين على فهمك.. لأنك كنت من عالم آخر.. ومن زمن آخر.

أما ذكراك فستبقى نبضاً تعيش به طفلة أحبتك.. لطالما نادتك منتشية.. سعيدة "جدي" لم يجتح قلبها الكذب، والغدر، والتنكر..

ووصاياك ايها الشيخ العجوز.. ستظل ناقوساً يدق، كلما انحرفت قلوبنا أو اصابها شيء من الصدأ.. ستعيش في ديمومة أفكارنا الحزينة.. نتلحف بنبرات صوتك المتعب.. نتلمس في أطياف الخيال أياديك الهرمة.. وأنت تمسح بحنان وجه طفلك المفجوع بفقد أمه.. فكنت سلواه في الزمن الصعب.. كنت رفيقه في درب الأمل.

سيدي: إنهم يظنون أن الموت قادر على فعل أشياء كثيرة.. إنهم لا يفهمون أن الموت لا يقوى إلا على الأجساد.. لتبقى الذكريات.. الأرواح.. الأحلام.. والآمال في لقاء آخر.

إنهم لا يفهمون أن أساس الحياة الحب الذي لا يقطع وشائجه.. الغياب والرحيل.. إنهم لا يفهمون كيف كانوا قساة.. أقوياءً.. كم كانوا متكبرين.. متغطرسين.. إنهم لا يفهمون فداحة الخطأ الذي ارتكبوه!

سيدي: إن ظنونهم تلاشت.. وإن أطفالك قد فهموا مع أول صوت قال: إنك ذهبت.. لقد بكوا.. لقد انهاروا.. لقد شاهدت دموعهم.. لكنهم كانوا يظنون!!

لا شك أنك مريض

ما الذي أحزنك إذ أبكاك؟ أهو طيف ذكرى.. أم وسن الأحلام..
لا شك أن دموعك ألم.. وآهاتك بوح بلغة لا يفهمها السعداء.
لا شك أن تعبك قد مضى بك.. وجفونك قد أصابها الذبول.. فعيناك قد أبحرتا.. وضاعتا في وسط السواد.. وجسدك المنهك من الترحال.. من التجوال.. قد خلد للنوم والاسترخاء.

ما الذي أحزنك إذ أبكاك؟ صراخ لاذت بالخوف يحميها.. أم نداءات ظمأى تهرب إلى الموت يسقيها.

لا شك أننا في غمرة الأنا نسيانك.. ونسينا الحب.. لا شك أننا أصبحنا خواء.. تسكننا خفافيش الذبول.. تطاردنا هواجس المرض.

ما الذي أحزنك إذ أبكاك؟ صغير الوحدة الذي يسكنك.. أم ضجيج الكون الذي يلفك؟ لا شك أنك مريض بداء الألفة، والمحبة البيضاء!

الطائر الفيلسوف !

هذا الطائر اللعين ما فتئ يستفزني بتحليقه المناسب.. بتصفيقه بأجنحته البيضاء.. هذا الطائر الذي للوهلة الأولى شعرت أن الحوار معه غير متكافئ.. فهو كائن ثانوي.. ليست لديه مهام كثيرة بالحياة.. وليس له أهمية في الكون.. إنه مجرد ديكور في معالم الأرض، يزينها لنا من أجل أن تكتمل صورة الجمال في عيوننا.. إنه مثل مزهرية جميلة في زاوية منزلك.. أو مثل ورد مجفف خلاب يزين ركنا قصرك.. لذلك نعطر عيوننا بجماله وتناسقه مع أمواج البحر عند طيرانه في خفة وانسياب غريب أخاذ.

هذا الطائر اللعين ما فتئ يستفزني.. لكنني سعيد بتفوقي كإنسان. سعيد بتفردي النوعي كمخلوق مختلف.. عندما حط على الشاطئ.. كان يحمل في منقاره سمكة.. ثم أخذ في التهامها.. ثم أخذ في التقافز على الشاطئ.. تباً له حتى المشي لا يجيده.. حتى أمام وقار البحر.. أو أمام غضبه.. أو أمام هدوئه العجيب المخيف.. كنت مبتسماً.. أقول له: أي حياة يا طائر النورس حياتك؟! أي دنيا تعيشها؟! أي بؤس تسير نحوه؟! أي تعب يحرقك؟! أي ألم يحيط بك؟! أي خوف يجتاحك؟! بل ما هذه

الحياة المالحة؟! أي تصالح تقيمه مع أيامك المعدودة المعذبة؟!
هذه الطائر اللعين ما فتئ يستفزني.. عندما شرع في الإجابة.. عندما بدأ في الحديث قائلاً: أيها الإنسان.. برغم اختلاف أشكالك.. واختلاف ألوانك.. برغم أجناسك المتعددة.. وعاداتك المنوعة.. وجدتك أنك هو الإنسان في همّك وحزنك.. في كبريائك وتعاليك.. أيها الانسان: كم جلس مجلس التأمل هذا الذي تجلسه الآن؛ العظماء والملوك.. فلم يمنعني حراسهم.. أو تخيفني حرابهم.. كان الشاطئ ملكي.. والبحر مملكتي.. كنت حراً.. طليقاً.
أيها الإنسان: كم جلس مجلس التأمل هذا الذي تجلسه الآن؛ الوضعاء والمعدمون.. والفقراء، والمعوزون.. فلم أزدد إلا معرفة وقناعة أن بؤسك صنع يديك.. وحزنك تفكير عقلك.. ونظرة الغضب في عينك.. إنما هي سهمك لأخيك الإنسان.. أما نحن؛ فنعيش أبدية الأرض.. لا تحكمنا تقسيماتكم.. ومظاهركم.. وأموالكم.. وطبقياتكم.. وعنصرياتكم.. ولا نستظل في أرزاقنا بالوصولية والمحسوبية.. كلنا واحد.. نسافر.. ونعود.. لا يؤرقنا حسدك.. أو تتعبنا أحقادك.. أو تطلعاتك البسيطة أو الكبيرة في الحياة.. ولا نفكر بإلغاء الآخر، من أجل الوصول للقمة مثلك أيها الإنسان العجيب.. إننا لم نشتغل بالتقاتل.. ولن نفتك بالمساكين.. ونلغي وجودهم.. فلم يقتل منّا الألوف والملايين، بسبب الحروب،

وصناعة الأسلحة الفتاكة.. ولم تجتاحنا أمراض المدنية ولا توجهكم الحضاري.. لم نلوث البحار بالزيت، وأطنان الخردة والحديد.. لم نؤذ المخلوقات التي تشاركنا الوجود.. ولسنا نحن الأغبياء الذين أنهينا حياة أنواع وفصائل سارت للانقراض والتلاشي.. بسببك وحدك أنت أيها الفخور بإنسانيتك!! فنحن الطيور نجتمع على الوحدة.. لكن أنت أيها الإنسان السعيد بإنسانيتك؛ لا يجمع أغنياؤك وفقرائك.. عظماؤك وأقزامك إلا ألوان البؤس.. وحالات الكآبة؛ فجميعكم لستم سعداء.. أو بمعنى أدق؛ لا تعرفون السعادة الحقة!!

لم تكن أحاسيس..

كانت حقيقةً لا نعرف لونها.. وحياةً لم نعش فصولها.. كانت مشاعر نور خافت.. وهمس حديث صامت.. وصراحة قلب خائف.. كانت نبعاً قليل الماء في صحراء حالكة.. كانت احتفالات بدأت لتوها داخل روح متعبة.. كانت ابتهاجات إحساس جديد.. وطيف جميل.. وحب وليد.. كانت أنسام الصباح تروي ظمأ شطآن قاسية، وأياماً مالحة.. لم تكن أحاسيس كذب تلك.. بل كانت لحظات معطرة بالصدق والثناء الجميل.. ونوعاً من الوفاء الفريد.. لم يعرفها قلبك في بحور الشك والضيم العتيق.. كانت أموراً لم يتعودها ذهنك المتعب من الألوان والسفر البعيد.. فكنت تقولين: أحاسيس كذب.. مشاعر زيف.. آهات غدر.. ولم تكن أحاسيس كذب تلك التي حملتها وأهديتها وقلتها.. كانت حقيقة رائعة.. قتلتها في مهد حياتك البائسة!

فانعمي بنوم الضمير الهادئ، وحلقي في الأحلام الوردية التي تشبه الدماء البريئة! واسرحي بعقلك في دروب دنياً لم تملّي كذبها.. ولم تعرفي لونها.. واشعلي نار روحك النادمة.. ثم موتي باكيةً.. فلم تكن أحاسيس كذب تلك.. الماضية.

موت عجوز.. لا أهمية له !

اسمحوا لي أن أحدثكم عن غربة الروح وسط وهج المدينة.. وحديثها الممل السمج.. وسط كون.. تشعر أن جوفه خال.. وعمقه مفلس.
اسمحوا لي أن أقول لكم في لحظات إعياء وتعب.. حديث النفس داخل النفس.
اسمحوا لي أن أثرثر ثرثرة الذي يشعر أن في الكلام راحة.
اسمحوا لي أن أتكلم.. فأنا متخم من الخوف على لقمة عيش.. غطست مراراً وتكراراً في وحل المنة.
اسمحوا لي أن أعيش ولو مرة في حياتي.. أجد نفسي لا تريد الكلام. واتركوني أقول وأقول وأقول.. حتى أشعر أني خفيف جداً.. أطير مع نسمات الهواء.. حتى أشعر أنه لا ثقل يقعدني عن اللحاق بركب القديسين.. والعظماء.
سأقول أماني الطفولة.. وسأتحدث عن ذكريات الرجولة.. سأتذكر القرية ومسجدنا الصغير.. سأتذكر استجداء الشيخ العجوز.. ودعواته مع الأصيل.. وعبير أنفاسه عند الغسق.. وذهولي من نزول المطر.. في وهج الحر والمرض.. وسأبكي بين يدي الظلام.. وألمس كيانه الأسود.. سأستنشق الهواء الملوث.. وأشاهد الدموع القذرة.. وسأبكي لهيب الوحدة.. وحرقة السكون المريب.. ونار

وغبار الوجود.

وسأقول يوماً ما: كان هنا شيخ عجوز.. أنكر الحياة، عندما وهبها لصغاره..

وسأقول: إن الصغار ذبحوا الشيخ العجوز ألف مرة ومرة!! على مقصلة من الجحود والدموع.

وسأقول: إن الصغار لوثوا براءة الأطفال! وإن الصغار اغتالوا فرحة الشيخ العجوز.. وضحكته!

سأقول: إن الصغار ماتوا.. يوم مات الشيخ العجوز.

شكوى صديق..

صديقي الغارق في ذاته.. بدأ ينوح.. أو يتوجع.. وكأنه فقد شيئاً ثميناً.. بمجرد أن خفت الضوء الذي كان مسلطاً عليه.. شعر أنه وحيد لأول مرة.. وبدأ يحس أنه غير مرغوب فيه بين هذه الجموع التي طالما ضحكت معه.. مازحته.. وكانت بجانبه تؤنسه وتفرحه.

أخذ يقول: أشكو إليك الناس.. إنهم لا يحترمونني.. لا يعيرونني اهتماماً.. يتجاهلونني.. وكأنني أعيش واستنزف خيراتهم.. كأني استنشق هواءهم.. أستظل بشمسهم.. أنام في ليلهم.. أغدو في نهارهم.. كأنهم يمنحونني أسباب الحياة من حسابهم.. كأنني عالة عليهم.. إنني أشكو إليك الناس! وإنني أغبط كل الناس أحبوه.. بل أحسده على التفاهم حوله.. وسؤالهم عنه.. ومواساتهم له.. والفرح معه.. إنني أشكو إليك الناس.. وأسأل: ماذا فعلت بهم حتى يكرهونني؟! ماذا صنعت بهم حتى يتجنبونني؟!

صديقي يعلم الآن أكثر من أي يوم مضى.. أن حب الناس عفوي.. لا يمكن أن نكسبه، لأننا نقف على مصالحهم وحاجاتهم.. نقضيها لمن نشاء ونمنعها عمن نشاء.. نخدم القريب.. ونتجاهل الغريب.. نتودد للقوي.. ننسى الضعيف.. نجامل الثري.. ونقسو

على الفقير..
إنه يعلم أن الناس لا يعطون احترامهم للجميع.. وأن الحب له مساحات أخرى من الصدق والشفافية!

هذا اليوم..

هذا اليوم كسول بطيء.. والصباح حزين كئيب.. والعصافير صامتة.. أهي في حداد؟
سقط الطير الصغير من أعلى الغصن فمات.. سقط شعب.. ليتنا مثل العصافير.. نحزن فقط.. نصمت فقط!
هذا اليوم متردد في الظهور.. في الإعلان عن نفسه.. والشمس تشرق على استحياء.. في خجل عفوي من نظرات البؤساء والمعدمين.. مات أحدهم جوعاً.. مرضاً.. هماً.. بكاه الصمت.. وجدران الخرائب المهدمة.. ومزابل المدينة.. وقطط الشوارع التي شاركته الفاقة..
هذا اليوم اتشح بالسواد.. ولفّته غيوم رمادية خانقة!

التناسي !!

لم يكن ذهني قادراً على التركيز.. ولم أكن قادراً على تجميع أفكاري لاتخاذ قرار فيما آلت إليه الأمور.. كنت متعباً.. والإعياء أنهك كل حماس للدفاع عن نفسي.. لا.. بل إن قواي كانت خائرة تماماً.. كنت في أمسِّ الحاجة لعون المساعدة.. أو لكائن يمدني بكلمة حانية.. أو على الأقل نظرة متعاطفة.

عندما أفقت من كوابيس الواقع السوداء.. لم أكن أشاهد سوى أوجه تكرهني.. وألسنة تعنفني.. وأيدِ تمسني بقسوة.. لم أشاهد سوى صدئة.. وأشكال مالحة.. وما عداه كان كل شيء يسير بروّية.. بهدوء.. وبعقلانية.

لم أكن خائفاً.. وكذلك لم أكن شجاعاً.. لكنني كنت أخشى الوحدة.. وكذلك أهرب من العزلة.. وفي كل المرات كانت قرارات إبعادي.. طردي.. تعصف بي.. نعم.. نعم.. لم أكن مهتماً بكرامتي، بقدر اهتمامي أن أظل معهم.. صحيح.. صحيح.. لم أكن متحمساً للذود عن إنسانيتي، بقدر إشغال عقلي بالتناسي، والتناسي، والتناسي !

مفتاح السعادة..

لا أحد ينتظر.. لا أحد يسأل.. لا أحد يتكلم.. مسكين هذا العالم.. مسكين هذا الصخب والضجيج.. إنه وحيد.
وستزداد هذه الوحدة.. كلما زدنا في أنانيتنا وإنكار الغير.. لن يجدي تصنع السعادة والفرح أمام خواء النفس وسقمها.. لن ينسكب هذا الاطمئنان في عروقنا إلا إذا شعرنا بأوجاع الآخرين وآلامهم وآهاتهم.. إذا شاركناهم وتعبنا معهم.. إذا آمنا بحقوق الغير حتى البعيد عنا، الذي لا رابط بيننا وبينه سوى الإنسانية.. لن نعرف الاطمئنان إلا إذا أنكرنا تفضيل أقربائنا وأصدقائنا على الغريب الذي لا حول له، ولا قوة.. إذا سلمنا بمبدأ بسيط جداً، اسمه المساواة وحق تكافؤ الفرص.
مفتاح الحبور والراحة هو اطمئنانك مع نفسك.. ولن يأتي هذا إلا إذا تمنيت لكل الناس الراحة والسعادة كما تتمناها لحياتك.. لن نسعد ونحن نعيش بانعزالية وأنانية.. مفتاح السعادة هو هذا الجمع من البؤساء والمعدمين.. هذا الكم من الفقراء والمعوزين.. الذين هم بحاجة إلينا.. بحاجة للقليل جداً.. بحاجة للبسمة البيضاء.. للشعور بالاحترام.. للإحساس بالأهمية!!

الحلم..

كنت قد انتهيت آخر من يوم عمل قبل بداية إجازتي السنوية.. حيث أشعر بإنهاك وإرهاق شديدين فما إن وصلت لمنزلي، حتى رحت أغط في سبات عميق.. لكنني عندما استيقظت.. كنت كمن لا يقوي على التنفس.. إنني اختنق.. لعلي سأموت الآن.. إنه الحلم المزعج الذي انتابني.. كان يبدو كرسالة بموتي.. نعم.. نعم.. فتفاصيله لا زالت قوية في ذاكرتي.. فالأنهار.. والبحيرة.. مناظر لم أشاهدها أبداً في حياتي.. إنها الجنة ولا شك.. ليتني لم أقرأ كتاب تفسير الأحلام.. لفك رموزه.

إنه لم يكن حلماً.. كان كمن يخبرك بدنو أجلك.. كان كابوساً.. أنا أشعر بالقلق.. شيء مربك أن تعرف أن أيامك أصبحت معدودة في هذه الحياة.. نعم إننا جميعاً سنموت.. لكنني الآن أعرف أنني في أي لحظة من اللحظات القادمة سيتوقف قلبي.. إنني خائف.

حتى الآن لم أتوقف عن استنشاق الهواء.. فلا زلت أشعر بأنفاسي المتواصلة.. ولا زلت أتلمس حبات العرق على جبيني.. لكن حياتي توقفت.. إنني منعزل في هذه الغرفة الصماء.. لعلي أحاول الاختباء من ملك الموت.. كل شيء مات في عيني قبل أن أغمضها عن

أنوار من السعادة والاخضرار التي تكسو حياتي.
لم أعد أذهب في نزهات.. ولم أعد التقي الأصدقاء والخلان.. حتى هاتفي النقال لزم الصمت منذ أن نفدت بطاريته.. ولم يجد منّي اهتماماً بمده بشحنة من الكهرباء ليواصل زعيقه!
كان الشتاء يخيم في الأرجاء.. كانت الشمس تأتي في موعدها.. وتغادر في موعدها.. ضرب من الوفاء لم أحظه من قبل.. كان المطر جميلاً مع الغروب.. لم أكن أعلم من قبل أن شرفة غرفتي تحوي هذه المناظر الجميلة.. كنت وحيداً.. كنت خائفاً.. ومريضاً.. كلما ألقيت نظرة من هذه النافذة.. أجد الناس في حركة دائبة متواصلة.. غير عابئين.. أو خائفين.. أو مدركين لخطورة الموت.. ونهاية أرواحهم. لقد حزنت.. ثم بكيت.. لقد كانت مشاعري واهنة.. كأنني كائن.. ينتظر إعدامه.. كلما دق جرس الباب.. ينتفض قلبي من صدري.. أعود لطمأنة نفسي أن ملك الموت لن يدق الأبواب عندما يقرر المجيء.. سيأتي من الأعلى أو من الأسفل.. أو من النافذة.. لكن لم تكن أي من طرقات الباب هي من أنامل أصدقائي للسؤال عن صديقهم الغائب منذ أيام.. كانت النسوة.. أكثر حفاوة بأمي العجوز وبزيارتها، لأنها أصيبت بوعكة صحية.عندما انتهت إجازتي.. خرجت من المنزل باتجاه عملي.. لم يحفل أحد.. سوى قطة عند الباب! كانت تنظر نحوي وتموء بعنف

كبير.. لعلها شاهدت ملك الموت بجانبي!
عندما وصلت لمكتبي.. كنت مثل كائن ينتظر إعدامه بعد لحظات.. عندما جاء زميلي يوسف أخبرني أن المدير العام يريد رؤيتي.. توجهت نحوه فوراً.. عندما وصلت لمكتبه.. نهض خالد سكرتيره على غير عادته يصافحني بحرارة.. وبدون أن انتظر قدمني لمديري.. الذي نهض وسلم، ثم قال: أرجوك تفضل بالجلوس! كأن الجميع كما يبدو ينتظرون عودتي.. ذلك أنه قد صدر قرار بترقيتي.. وتعييني مديراً لفرع شركتنا في بلد أوروبي.. لم تكن "سويسرا" جميلة وحسب.. لكن هناك كنت مواصلاً همومي والآمي.. ليس خوفاً من الموت الآن.. بل حزناً على حلمي.. فالخضرة.. والأنهار.. والبساتين.. والبحيرة.. التي طافت بي أثناء منامي.. كانت صور دنيوية.. فلست جديراً حتى في الأحلام أن أشاهد الجنة.. ولست جديراً أن أشتاق لها !!

الشيخ العجوز.. احذر !

أكثر من ثمانين عاماً من الألم والحزن غطتك.. بياض شعرك همك المكبوت.. أنفاسك هي عنوان شممك ونبلك.. حين توقفت.. قالوا: مات ، قالوها مستهزئين.. كأن الموت لن يطويهم! كأنهم سيموتون مثلك في كبرياء في أفضل يوم طلعت فيه الشمس! كأنهم سيموتون مثلك ضاحكين من الدنيا.. كأنهم سيموتون صادقين تماماً مثلك.. كأنهم سيموتون طاهرةً قلوبهم مثلك!

أكثر من ثمانين عاماً.. صنعت فيها رجالاً.. ومهدت دروبهم إلى القادم.. وشيّدت للمستقبل صرحهم.. وكأنهم في جحودهم سيكونون مثلك.. أكثر من ثمانين عاماً حقق فيه رجالك المال والجاه.. وأنت.. أنت لم تحقق لنفسك شيئاً.. وكأنهم سيكونون مثلك.. أكثر من ثمانين عاماً فتحت عينيك على بضع عشرات من الشياه والأراضي الزراعية والبيت الحجري.. ثم تموت وأنت مغمض العينين على بضع عشرات من الشياه والأراضي الزراعية والبيت الحجري.. ورجالك يتوهجون من حولك بالنعيم والرخاء والرفاهية.. ويريدون أن يكونوا مثلك؟!

أكثر من ثمانين عاماً عشتها غريباً وحيداً.. لم يصدق معك الزوج أو الصديق.. خانك حتى أطفالك الذين أصبحت لهم أنياب..

ويريدون أن يكونوا مثلك؟! أكثر من ثمانين عاماً ولك في الموت فصول وقصص.. أفقدك الحبيب والطفل الرضيع والصديق الوفي.. ويريدون أن يكونوا مثلك؟! أكثر من ثمانين عاماً وأنت في عناء وفقر.. ورغم ذلك كنت قنوعاً سعيداً شاكراً لله نعمه وأفضاله.. ويريدون أن يكونوا مثلك؟! تباً لهم.. والله لن يبلغوا تراب قدميك.. تباً لهم ولكذبهم وإفكهم.. تباً لهم في وشايتهم وافترائهم عليك.. تباً لهم في جحودهم وإنكارهم لعطائك وتعبك.

أيها الشيخ العجوز نم في سبات عميق حتى اللقاء.. يوم تجلس بين يدي ربك.. أيها الشيخ العجوز نم في سبات الراحة حتى اللقاء.. وحذارِ أن تسامحهم.. وحذارِ أن تعفو عنهم.. حذارِ.. حذارِ..

بقي في صدري لهيب فراقك.. وألم دموعك.. وأيامك الطويلة الحزينة.. بقي في كياني حرارة رحيلك.. ونظراتك الباحثة عن صدر محب.

الامتحان..

مضت سنوات على وفاة طفلي "طارق".. لو كان حيّاً لما كنت أسميته طفلاً.. لكن صورته توقفت في ذهني منذ تلك الأيام.. لو كان على قيد الحياة سيكون بلا شك واحداً من هؤلاء الشباب الباحث عمل ووظيفة.. لكن سيعرف طفلي الصغير.. أنني لن أساهم بقليل أو كثير في دفعه للأمام.. لن أتوسط له عند أحد.. فهو سيكون قد علم كراهيتي لهذا النظام غير العادل.. وبلا شك إنه سيكون قد أدرك بغضي للمحسوبيات والصعود على أكتاف الآخرين، وعلى حسابهم.

لو بيدي لما ترددت في قبول جميع هؤلاء الشباب الذين تلفح الشمس أوجههم المتطلعة والمتحفزة للغد.. لكن ليس بوسعي شيء أقدمه كرئيس للجنة القبول.. سوى قبول أعداد محدودة جداً على ضوء درجاتهم الدراسية.. العدالة.. العدالة أو محاولة إنصاف الجميع.. هي ما أسعى له هنا.. لقد عرف عني جديتي.. وعدم حبي للأبواب الخلفية.. أو الأوراق الصغيرة.. وعموماً جميعها أمور لا تجدي معي أبداً.

في هذا الصباح دلف الشاب المتقدم رقم 3119 حاملاً ملفاً

أخضر.. كان خائفاً مرتبكاً.. عندما شاهدته.. لم أنزل عيوني عن محياه.. ومن على وجهه الصغير.. سحبت ملفه.. وألقيت نظرة سريعة على محتوياته.. يا للهول أنه "ناصر" طفل الأمس.. كم قد لعب مع طفلي.. كم نام في نفس فراش "طارق".. كم كانوا أشقياء سوياً.. نعم.. نعم.. إنه "ناصر" الذي لعب بباب منزلنا في ذلك الزمن وهو يضربه في كل أجزاء اليوم.. ظهراً.. عصراً.. وعندما يحل الظلام.. باحثاً عن صديقه.. سائلاً عن "طارق".. لطالما رفض "ناصر" تصديق أن "طارق" قد مات.. أو أنه لم يكن يعلم ما هو الموت.. لطالما حملته من أمام الباب، حيث يجلس يبكي.. لطالما أشعل "ناصر" النار في قلبي وقلب زوجتي على "طارق" بوفائه له.. لا زلت أتذكر بعد أسبوعين من وفاة "طارق".. وبعد أن فقدناه.. قلنا لعل الصغير "ناصر" نسي صديقه "طارقاً" الآن.. لكن أطفال الحي أبلغوني أنه مريض.. كان "ناصر" طفلاً صغيراً هزيلاً.. عيونه منه.. وأمه امرأة طيبة.. تعمل وتكدح.. براتب زهيد.. في إحدى مدارس البنات.. لتوفر لأطفالها قوت يومهم، وغذائهم، ومستلزماتهم.. كانت امرأة مجاهدة صبوراً.

إذن يقف أمامي الطفل الذي شكل مع صغيري ثنائياً عجيباً من المرح العفوي.. والشقاوة البريئة.. واللعب المتواصل.. وأمامي صغير الأمس الوفي.. أيضاً الحزين مثلي.. إن الكآبة ماثلة في وجهه

الصغير.. إنها الحياة وقسوة الأيام والنفوس والقلوب.. جعلت أمعن النظر في ملفه، عندما أشار له أحد أعضاء اللجنة بالجلوس.. إن درجاته الدراسية متدنية جداً تبتعد عن المقبول ببضع درجات لتصل إلى الجيد.. أحد أعضاء اللجنة سأله قائلاً: لماذا تكبدت العناء.. وهذا الزحام.. ألا تعلم أن فرصة قبولك معدومة؟ أجابه "ناصر" قائلاً: لا لست أعلم أن فرصة قبولي غير ممكنة.. الذي أعلمه أن لدي فرصة.. ولا بد أن أسعى خلفها.. لكنني مستعد لكل الاحتمالات.. أحد أعضاء لجنة القبول يرد بحدة: لا توجد احتمالات.. يوجد أن نسلمك ملفك والباب تعرف طريقه.. الغرفة ضجت بالضحك.. كنت مصغياً للحوار.. حتى وإن ظهر تمعني في الملف.. عندما رفعت رأسي كان "ناصر" يتصبب عرقاً.. وقد احمر وجهه.. إنني لازلت أتذكر ملامح هذا الوجه جيداً، عندما يتعب هو وطفلي "طارق" من اللعب.. تتحول أوجههم للاحمرار.. موظف آخر من لجنة القبول، قال: حسناً يا "ناصر".. لن نكذب عليك فدرجاتك المدرسية متدنية جداً.. ويوجد آخرون أكثر كفاءة منك.. وفرصتهم أفضل.. لكننا سنحتفظ بملفك.. لكن لا تأمل بشيء، إنه عمل روتيني فقط.. قام "ناصر" وبعدها شكر الموظف.. ثم قال: إن أمي كانت تدعو لي بحرارة هذا الصباح.. ومن أجل دعائها قررت أن أقدم ملفي.. كانت تقول اللهم ارزق ابني على

قدر قلبه الأبيض.. يبدو أن قلبي ليس أبيض كما تعتقد أمي،
وذهب ناصر نحو الخارج بهدوء كبير !!

أسيرة في المدينة..

صعب أن تشاهد الوجوه شاحبة متعبة.. مزعج أن تبصر علامات الإرهاق على وجه الطفل.. واليوم أوجه عديدة فيها معان عظيمة للبؤس والفقر والعوز.. إنها وجوه لأطفال وشيوخ ونساء ليست في بلاد أفريقية أو آسيوية فقيرة.. بل في بلاد تعج بالغنى والترف.

هذا الصباح.. شاهد صديقي طفلةً لا تتجاوز السادسة من عمرها تعدو بين السيارات المتوقفة، عند إحدى الإشارات المرورية في المدينة الكبيرة.. تطلب الناس إحساناً.. أبصرها طفلةً تغطي رأسها بخمار أسود.. تلبس قماشاً مهترئاً أحمر.. مصبوغاً بالسواد من شدة الاتساخ. عاد وهو يقود مركبته نحوها.. وتوقف عند إشارتها.. ظلت تستجدي جميع السيارات المتوقفة.. تطلب من سائقيها صدقة من مال.. انتظرها أن تأتي لسؤاله.. لكنها تجاوزته لسيارة أكثر فخامة تقف خلفه.. وتجاهلته الصغيرة!! غضب جداً.. وحزن أيضاً.. لقد أضاءت الإشارة الضوء الأخضر.. فأضطر للذهاب.. ولا زالت صورة الطفلة الصغيرة عالقة في ذهنه المتعب.. إنها مثله أسيرة في المدينة الكبيرة.. أسيرة المظاهر والكذب.. لكن الفرق.. أنها أسيرة دون أن تعلم.. أما نحن فنعلم.. لكننا نحاول أن ننسى!!

حان الرّحيل..

أنزف المعاناة كما تنزف الدموع.. أستقي المرارة كما ترتوي من فيض الذكريات الجميلة..

عطر الحاضر الشوكي الرمادي القاسي بآهات الماضي الجميلة.. بانطلاقات البراءة.. بصراخ اللهو.. والحنين الى الجدران الطينية.. والأعياد العتيقة.. والأيام الدافئة.

وروداً بألوان زاهية تحمل عبق الذكريات.. تعطر ثنايا الوجدان.. اليوم نقول: أزهرت الدنيا.. نسقيها بماء العين.. نهبها الحياة.. نريد لها الاستمرار.. لكنها تأبى إلا السفر.. إلا الذبول.. إنها أزهار الزمن المحدود.. والإرادة المحدودة.. والحياة المحدودة.. والآن حان الرحيل.. أزف وقت السفر.

يا جمع البؤساء.. يا من تزينت صدورهم بنياشين الطرد والإبعاد عن قلوبنا المغرورة.. يا شعوب الفقر والفاقة والحاجة.. لقد كانت المعاناة أكبر من الحدث.. وكان الهم أقوى من الحقيقة.. وفي داخلكم الرغبة الأكيدة للعيش بسلام واطمئنان.. ورغبة أكيدة للعمل بشرف، وسمو، وتعال.. من أجل عزة نفوسكم المتعبة.. وأرواحكم الشفافة.. ورغبة أكيدة للنجاح من أجل قمة يسعد بها

أطفالكم وأحبابكم.

علمونا – فقط – كيف ننكر الذات؟! كيف نضحك مثلكم؟! كيف تطمئن أرواحنا؟! علمونا ما كتبه القدر، ولم نعرف قراءته.. وما خطه الزمن ولم نفهمه.. علمونا أن الأرواح لا تموت.. فقط علمونا كيف نصبح أحياء!